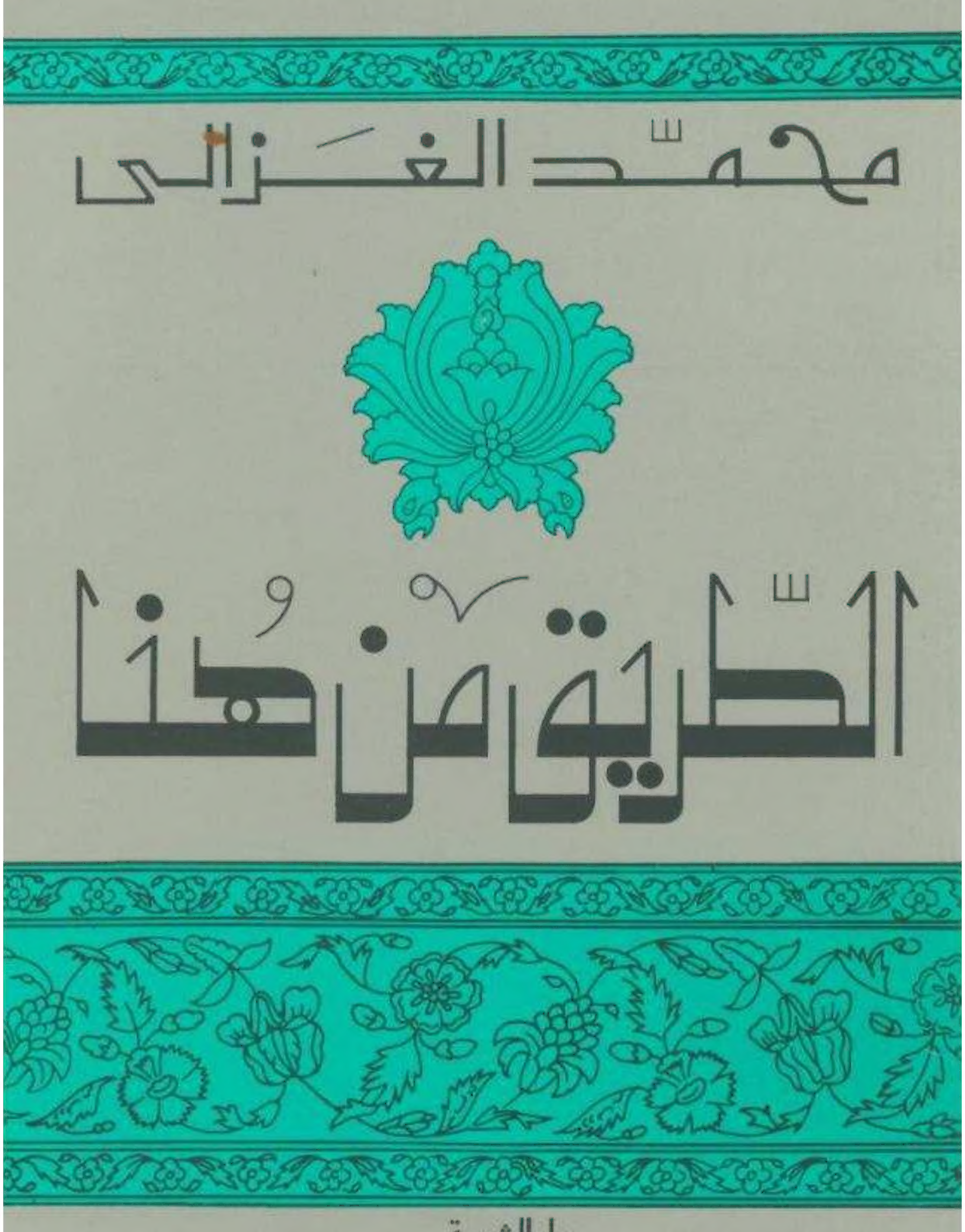

محمد الغزالي
الطريق من هنا
دار الشروق

محمد الغـــزالى

دار الشروق



بسم الله الرحمن الرحيم

مقــدمـــة

تخلُّف العالم الإسلامى قضية معروفة وإن كانت مخجلة ! وهذا التخلُّف أطمع الأقوياء فيه ! بل قد طمع فيه من لا يحسن الدفاع عن نفسه ! وشر من ذلك أن هذا التخلُّف ألصق بالإسلام تهما كثيرة ، بل إن عقائد خرافية فكرت فى إقصائه ووضع اليد على أتباعه . . !

ولست أَلُومُ أحدًا استهان بنا أو ساء ظنه بديننا مادمنا المسئولين الأوائل عن هذا البلاء ، ان القطيع السائب لابد أن تفترسه الذئاب .

وقد نهض كثيرون لمعالجة هذا الانحدار ، وإزاحة العوائق التى تمنع التجاوب بين الأمة ودينها أو إزالة الأسباب التى جعلت أمة كانت طليعة العالم ألف عام تتراجع هائمة على وجهها فى مؤخرة القافلة البشرية . . .

ورأيت ناشدى الإِصلاح فريقين ، فريقا يتجه إلى الحكم على أنه أداة سريعة لتغيير الأوضاع ، وفريقا يتجه إلى الجماهير يرى فى ترشيدها الخير كله . .

قلت فى نفسى : إن الذين يسعون إلى السلطة لتحقيق رسالة رفيعة لابد أن يكونوا من الصديقين والشهداء والصالحين أو من الحكماء المتجردين والفلاسفة المحلقين ! وأين هؤلاء وأولئك ؟ إنهم لم ينعدموا ، ولكنهم فى الشرق الإسلامى عُمْلَة نادرة .

ومع ذلك ، فإن أى حكم رفيع القدر لن يبلغ غايته إلا إذا ظاهره شعب نفيس المعدن عالى الهمة ! .

إذن الشعوب هى الأصل ، أو هى المرجع الأخير ! وعلى بغاة الخير أن يختلطوا بالجماهير لا ليذوبوا فيها وإنما ليرفعوا مستواها ويفكّوا قيودها النفسية والفكرية ، قيودها الموروثة أو التى أقبلت مع الاستعمار الحديث . . .

وجاء الاعتراض السريع : إن السلطات القائمة لن تأذن لهم بذلك فهذه السلطات إن لم تَوْجَلْ على منافعها وَجِلَتْ من القوى الكبرى التى تملك زمام الأمور فى العالم الكبير ، ومن ثمّ فسوف تُخرس الدعاة وأولى النُّهى . . .

ولم تخدعنى هذه الحجة على وجاهتها الظاهرة ، ولم أرها ذريعة للاشتباك مع الحاكمين، وأخذ الزمام من أيديهم بالقوة ، فقد راقبت كثيرًا من مراحل الصراع على السلطة درست ناسا نجحوا فى الوصول إلى المناصب الكبرى فلم أرهم صنعوا شيئًا ، بل لعلّهم زادوا الطين بِلّة . . ! .

إننى أناشد أولى الغيرة على الإسلام وأولى العزم من الدعاة أن يعيدوا النظر فى أساليب عرض الاسلام والدفاع عنه ، وأن يبذلوا وسعهم فى تغيير الشعوب والأفكار ، سائرين فى الطريق نفسه الذى سار فيه المرسلون من قبل . . .

والإسلام اليوم يعانى من أمرين : الأول تصوُّر مشوَّش يخلط بين الأصول والفروع ، وبين التعاليم المعصومة والتطبيقات التى تحتمل الخطأ والصواب وقد يتبنّى أحكاما وهمية ويدافع عنها دفاعه عن الوحى ذاته !! .

الثانى جماعات متربصة تقف بعيدًا دون عمل ، تنتظر بأعداء الله الويل والثبور وعظائم الأمور ، وهى فى ميدان الدعوة الإسلامية بطالة مقنعة لأن المسلم سواء ملك سلطة رسمية أم لم يملك ، إنسان ناشط دءوب لا ينقطع له عمل فى الشارع أو البيت أو المسجد أو الحقل أو المصنع أو الدكان أو المكتب . . .

وليس العمل المطلوب مضغ كلمات فارغة ، أو مجادلات فقهية أو خصومات تاريخية ، إن العمل المطلوب أسمى من ذلك وأجدى ! .

إننا نحن المسلمين انهزمنا فى ميادين كبيرة لا تحتاج إلى عصا السلطة ، والمجتمع الذى يعجز عن محو تقاليد سيئة فى دنيا الأسرة لن يحقق نصرًا فى دنيا السياسة وكيف ينفذ قوانين الشريعة من لم ينفذ قوانين الأخلاق ؟ .

ليس من الإسلام أن أضع قدما على أخرى ثم أرتقب من جنِّ سليمان أن تضع بين يدىَّ مقاليد الحكم . .

إن الجهاد الإسلامى كدح مُضنٍ ، فى ميادين وعرة ذكرتُ نماذج لها فى هذا الكتاب ، وقد ساق الله الدولة للمسلمين الأوائل وهم مشغولون بالعمل له ، وبناء مجتمع ربانى خالص من الرذائل والمآرب ، أى أن أولئك المسلمين عُرفوا بطراز معين من العقائد والعبادات والأخلاق ، وطراز آخر من التفكير والتدبير والسلوك يشرفهم ويعلّى قدرهم ، ولم يعرفوا بسلبية ولا أنانية ولم يُزْرِ بهم جمود ولا طيش . .

أريد من المسلمين بين الأطلسى والهادى أن يبدأوا العمل لفورهم فى تلك الميادين المهجورة ، وأن تتكوّن لهم أجهزة دوارة منتجة ، وَلُوا الحكم أم لم يلوه ! .

المهم أن أبذل وسعى ، فإن وصلت إلى هدفى أو مت دونه لقيت الله ومعى عذرى «فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » [١].

لقد خيل للبعض أنه يمكن السطو على الحكم بطريقة مّا ثم يتحول هذا السطو إلى وجود مشروع عندما يقيم هذا الحاكم بعض شرائع الحدود والقصاص ! سيكون الحكم إسلاميا بهذه الحيلة الظريفة . . .

قلت لأحد المعجبين بهذه الطريقة ، إن ذلك معناه أن اللص الكبير يقطع اللص الصغير، أو كما يقول الحسن البصرى : سارق السرّ يقطعه سارق العلانية ! .

وقد كشف النبىُّ ﷺ فى سنته : أ هلاك الأمم من قبلنا إنما يجىء من هذا المسلك إذا

---

(١) الآية : ٤١ ، ٤٢ من سورة الزخرف .

سرق القوى تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ! .

إن الفرعنة مرفوضة قبل تولى المناصب أو بعد ذلك ، ومن عجائب العالم الإسلامى وحده أن الحكم من طرق الثراء ، وقد فكرت طويلاً عندما قرأت أن الإسرائيليين أهدوا رئيستهم « جولدا مائير » مطبخا لمناسبة اعتزالها الحكم بعد سنين طويلة . . .

مطبخ ؟ إنه هدية سارة لديها ، قد تكون محتاجة إليه ! أما بالنسبة لبعض موظفينا فهدية محقورة ، فكيف إذا كان المطبخ هدية للرؤساء والملوك ؟ .

إن العقل الذى يفكر به الدعاة والمدعوون يجب تغييره ، وأستطيع الجزم بأنه ليس عقلاً إسلاميا .

فى هذا الكتاب صور قليلة لمفارقات بين واقعنا وديننا ، فى الماضى والحاضر ، أرجو أن تجد حظها من التدبر والوعى ، فإن مستقبلنا منوط بهذه اليقظة .

محمد الغزالى

دَعواتٌ تائهــــةٍ

فى أُمــــــَّـةٍ مُهـــَدَّدةٍ بالضَّيــــاَع

راقبت الأوضاع فى أقطار إفريقية الناطقة بالفرنسية والناطقة بالانكليزية ، فعرفت كيف مكّن الاستعمار لنفسه ، وكيف وفّر الضمانات لبقائه وان جَلَتْ جنوده عن الأرض ! .

نعم قد تَخْلُو الأرض منه ولكن سكانها امتلأت نفوسهم به ، وارتبطوا ماديًا وأدبيًا بمواريثه ، فهم راكنون إليه معتمدون عليه ! .

ماذا صنع الاستعمار لتحقيق هذه الغاية ؟ لقد فرض أولاً لغته وجعلها لغة المكاتبات فى الدواوين ، ولغة الدراسة فى جميع المراحل التعليمية ، ولغة التخاطب المحترم فى البيوت والشوارع ، وربما هادن اللهجات المحلية إلى حين ، ولكنه يعلن مقته للغة العربية ، ويتجاوزها فى كل محفل ، ويؤخر رجالها عن عمد ! ولا سيما إذا كان المسلمون فوق تسعة أعشار السكان ، ومن هنا كانت الفرنسية لغة السنغال ، والانجليزية لغة نيجيريا ، أما لغة القرآن فهى منبوذة ، أو مهملة ! .

وقد نشأ عن ذلك أن المسلم فى هذه الأقطار محجوب عن التراث الإسلامى ؛ لأنه مدون باللغة العربية ، وأنه إذا رأى أن يقرأ شيئًا عن الإسلام فعن طريق الإفك الذى سطره المستشرقون والمبشرون بإحدى اللغتين العالميتين ، الانكليزية ، أو الفرنسية . . !! ويا ضيعة الأجيال الجديدة . . . ! .

ومع حركة الافناء المرسوم للغة القرآن الكريم قامت حركة اقتصادية بارعة جعلت

الانتاج صناعيًا أو زراعيـًا فى أيدى السادة الأجانب ، أو فى أيدى العنـاصر الموالية لهم فهم مـلاّك الحقول وهـم ملوك الصنـاعات التحـويلية أو التجميعيـة ، وهم مـديرو المصـارف والشركات . . .

قديمًا قال شوقى : « يا مال الدنيا . أنت والناس حيث كنت » .

وقد فقه المستعمرون هذه الحقيقة ، فدسّوا أصـابعهم فى منابع الثروة ومصارفها وأشعروا أهل البلاد أن الرغيف الذى يأكلون ، والثـوب الذى يرتدون ، والمرافق التى يستخدمون ، فى يد أولئك المستعمرين المهرة ، وأن البعد عنهم طريق الضياع . . .

فإذا جَلَتْ الجيوش عن الأرض لأمر ما فلا تمرد هناك ولا تحرر فأيدى المواطنين هى السفلى فى ارتقاب العطاء الذى لابد منه ، وسادة الأمس بالقهر العسكرى هم سادة اليوم بالتفوق الاقتصادى والحضارى ، ولا معنى لاستعمال العصا إذا كانت الإيماءة بالعين ، أو الشفتين تكفى للخضوع . .

على أن الأمر لا يحتـاج إلى التلويـح بالقـوة فإن الشعوب المغلـوبة تتبـع غالبيهـا وتمشى وراءها مسحورة ، وتترك تقاليدها لتقاليدهم وأفكارها لأفكارهم .

ومع أن الإسـلام هو الديـن الأول فى أفريقية فـإن الظروف التعيسـة التى مرت بـأمته فى القرون الأخيرة أمكنت من خناقه ، وأنزلت به هزائم موجعة ، بل أطمعت الملل الخرافية فى طىِّ راياته ومحو آثاره . .

وهكذا مشـى التبشير الصليبى فى ركـاب الاستعمار المكتسح يـريد أن يضرب الإسـلام الضربة المميتة ! .

وأحسَّ أهل الغيرة بخطـورة المعركة ورأوا بعد سُبـات طويل أن يتحركـوا ، فهل أحسنوا صُنْعًا ، وهل وقفوا مؤامرات التبشير والاستعمار ! وهل أغاثوا الشعوب الصارخة ، أو داوَوْا عللها ؟ لننظر ما هنالك ! .

الثقافة الإسـلامية فى اضمحلال ! ولم لا إذا كانـت الانكليزية أو الفرنسيـة اللغة الأولى للدولة والشعب ؟ وربما كانت الأولى والأخيرة ! .

الجماهير تعانى من الجهل والفقر . وهى تقبل العون من كل عرض له ، ولو كان مقرونا بالكفر والفسوق . .

التقاليد السائدة ما أنزل الله بها من سلطان ، وربما كانت التقاليد الغازية أبعد منها عن الخرافة وأجدى على الناس .

فهل اشتبك الدعاة الإسلاميون مع مصادر الداء ، وبذروا بذور الإسلام الحق ، وجاهدوا فى الميدان الوحيد الذى يتقرر فيه مصير هذا الدين ؟ .

اتصلت ببعضهم لأسمع منه ماذا سيصنع ، ورأيت الاكتفاء بالسماع وعدم الخوض فى أى جدال . .

قال داعية من رجال الجهاد الإسلامى : إن تعطيل الأحكام الشرعية سبب ما نزل بالأمة من بلاء ولابد من محاربة هذه الجاهلية ، وإزالة الطواغيت التى تساند هذا الكفر . . . ! .

وقال داعية من رجال السلفية : إن تأويل الآيات جعل القلوب تزيغ ، ثم انضم إلى ذلك التقليد المذهبى ، وهجر السنة المطهرة تمشيا مع آراء الرجال ، وانتشار الطرق الصوفية، ولا تصلح الأمة ما بقى هذا الانحراف . . .

استعمت إلى كلام هذا وكلام ذاك ، وأحسست أن القوم لن يكيدوا عدوا ولن يكسبوا معركة ، إنهم لم يدرسوا الميدان الذى توجهوا إليه ولا الجحور التى تنطلق منها الأفاعى ، إنهم كالطبيب الذى جاءه مُصاب فى رأسه فصنع له جبيرة على قدمه ! .

وأطرقت أفكر فى عواقب هذا الجهاد الطائش ، وقال لى صديق : ما ترى ؟ .

قلت : لن يمضى عام على تحرُّك هؤلاء حتى تشيع الحزازات فى البيوت والمساجد ، وتدخل طوائف من الشباب السجون ويزداد الاستعمار والتبشير ضراوة ورسوخًا . . .

وصدق حَدْسى وليته ما صدق ، ووجدتنى محاطا بقضايا ومشاكل تثير الغثيان . . ! .

أصحيح أن الأكل على المائدة حرام ؟ ويجب أن نأكل على الأرض إقامة للسنة ؟ قلت :

إن الله أنزل مائدة على أصحاب عيسى ، وما أظنـه حظر على أصحاب محمد أن يأكلوا على مثلها - وكنت أضحك بمرارة - ثم قلتُ :

ترى هل تشترى المائدة من لندن أو باريس ؟ أم أن الصناعة المحلية ارتقت عندكم ؟ .

وجاء آخر يسأل : هل فى ارتداء البدلة الفرنجية تشبُّه بالكفار يُلحقنا بهم ؟ .

قلت : التشبه المنكور يكون فى العقائد والخلال لا فى الملابس والنعال . .

وحدث أن خطيبـا على منبره قال لرجـل دخل ليصلى الجمعـة قم فصلِّ تحيـة المسجد ! فقال الرجل نحـن مالكية تبطل عندنا هذه الصلاة ! ! فقـال الخطيب المفوَّه : أتترك محمدًا وتتبع مالكا ؟ وكانت فتنة مائجة قرَّت لها عين الاستعمار ! .

وتدخلت لأؤكد أن أئمة الفقه لا يُقدمون بين يدى الله ورسوله ، وأن الاختلاف يكون فى تفسير ما ورد ، أو فى قيمة ثبوته ، وما يفكر أحدهم أبدًا فى مخالفة رسول الله ﷺ . . .

وبلغنى أن أوليـاء فتاة ألْغوا خِطبـة شاب رفض إهـداء أساور من ذهـب لابنتهم ، لأن ذلك فى نظره حرام . .

وطرد شاب من الجامعة لأنه أصر على دخول المعهد بثوب لا يبلغ الكعبين .

وكانت الدعوة إلى الجهاد ، وإقامة حكم إسـلامى غامضة ، لا تدرى شيئًا عن حقوق الشعوب ولا ضمانات الحرية ولا قيام أحزاب ولا حرية الانتخابات . .

وإذا كان المسلمون قـد تراجعوا فى أنحاء العالم وسقطـت دولتهم الكبرى فى غير ميدان لمعاصٍ اجتماعية وسياسية اقترفوها وتوارثوها فإن الدعاة الجدد لم يكلفوا أنفسهم دراسة خطأ ولا تصحيح مفهوم .

ولذلك كثر صياحهم وقلّت جدواه ، واضطـرب الفكر الإسلامىّ فى درك هابط لا يثمر خيرًا فى دين أو دنيا . . .

والواقـع أن الاستعمار الصليبى جلا مـن تلقاء نفسه عن أقطـار إسلامية وغير إسـلامية

دون قتال ولا تضحيات لأنه كان شديد الوثوق من أن هذه الأقطار ستظل ذيولا له ، تستمدّ منه وتعتمد عليه . .

إن الأبصار الكليلة لا تدرك الأوضاع التى تفرض التبعية وتجعل أمة وراء أمة ، ويدًا تحت يد . . . ! .

إن الأبصار الكليلة لا تدرك الدعائم التى تقوم بها الرسالات ، وتستقر بها السياسات ، ولا تعرف قيمة الاستبحار الثقافى أو الازدهار الحضارى والصناعى فى نصرة الحق وإعزاز أهله وفرض أخلاقه وأهدافه . .

ولنتدبر هذا المثال لما يقع بعيدًا عن أرضنا ومجتمعنا . . .

من بضع سنين أعلنت حالة الطوارئ فى الولايات المتحدة ، وسيطر الانتباه على أعصاب الناس وأفكارهم ! ماذا حدث ؟ أإنذار بهجوم ذرّى ؟ أم إعصار بحرى من تلك الأعاصير التى تخلف وراءها الدمار ؟ لا هذا ولا ذاك الذى حدث أن أولى الأمر كانوا مسترسلين فى الإيمان بعظمة أمريكا وسبقها البعيد ، ثم اكتشفوا بغتة أن الاتحاد السوفيتى قد سبقهم ، وخلَّفهم وراءه فى ميادين علمية كثيرة ! .

وصدر الأمر بإنعام النظر فى برامج التعليم كلها ، ومراجعة كل شىء من المرحلة الأولى إلى درجات التخصص ، وانشغلت الحكومة والشعب بهذه الكارثة ، وضرورة السعى الحثيث لطىّ مسافة التخلف وإعادة التفوّق القديم . . .

ولم يمكث القوم غير بعيد حتى حققوا ما أرادوا ، وهم الآن فى إتمام تجاربهم لما يسمّى بحرب الكواكب ، سيقول الناس : عبقرية علمية جديرة بالاعجاب وهذا صحيح ! والأجدر بالإعجاب عندى هو الشعور بحدّة المنافسة ووجوب السبق .

إذا كانت القدرة العلمية تستدعى الثناء ، فإن الأحوال النفسية المصاحبة من اعتراف بالقصور وشحذ للهمة واعتداد بالنفس وحرص على النجاح كل ذلك لا يجوز إهماله ! .

ترى ما هى طبيعة هذه الأمة ؟ أتظن نفسها ممثلة العالم الحرّ فلا يسوغ أن يهزمها القابعون

وراء الستار الحديدى ؟ ربما ، أتظن نفسها على نصيب مـن الإيمان بالله وكتابه المقدس فلا يجوز أن يهزمهم الملاحـدة ؟ ربما ، أم هى كبرياء الثـروة والسلطة والنصر المتتابـع ؟ ربما قد يكون ذلك كله أو بعضه وراء مكانة الصدارة التى نالها شعب الولايات المتحدة . .

على أننا لا ننسـى ، ومن الخسـاسة أن ننسى ، أن هـؤلاء الأميركيين قتلوا نصـف مليون يابانى لإثبات وجودهم ، وأنهم من الناحية الدينية رصدوا قناطير مقنطرة لنشر الصليبية ، وقناطير مثلها لدعم اليهودية ، ومحو فلسطين !! لقد عادَوْا الإسلام بغير وعى ! .

وها هم أولاء يسيرون نحـو أهدافهم بالتفـوّق العلمى فى البر والبحر والجو ، فماذا نسير نحن إلى أهدافنا ؟ وإذا أعلنا حالة الطوارئ لا ستـدراك ما فاتنا فما هو التغيير الذى نحدثه حتى يتغير ما بنا ؟ مصداق قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ (١) .

إن طلاب العلم فى مـدارسنا وجامعاتنا يحفظون إلى حين بعـض المذكرات والملخصات حتى إذا جاء الامتحان قاءوها على أوراق الإجابة ، ثم انقطعت صلتهم بالعلم . .

وهناك رجال رزقوا لذة المعرفة وبرّزوا فى العلـوم التى درسوها حتى بلغوا القمم ، ويحزننا أن جمهورا من هؤلاء التحق بأوربا وأمريكا مؤجرا علمه لمن يقدرونه ماديًا وأدبيًا .

وهذا بـلاء عظيم وخسار فـادح ، ووددت لو عالجنـا هذا المسلـك برشد وتـؤدة ، فإن ضياع ثروتنا البشرية أهم من ضياع الثروات الأخرى . . .

لكنى لا أتـرك قضية اليقظة النفسية والفكـرية دون أن أبين خطرهـا على حاضر الإيمان ومستقبلـه ، ذلك أن الطفـولة العقليـة السـائدة بين متحدثين إسـلاميين يُخشى منهـا على أمتنا ، بل يجب أن نعلـم أنه لا مستقبل لنا مـا بقى هذا الاسترخاء الفكـرى والخلقى يصبغ شؤننا .

---

(١) سورة الرعد : الآية ١١ .

إن العمل الصالح ذكر فى القرآن الكريم ضميمة لابدّ منها مع الإيمان كى يفلح المرء فى دنياه وآخرته ، فما هذا العمل الذى تكرر ذكره أكثر من سبعين مرة ؟ .

بعض الناس يتصور أن العمل المنشود هو العبادات المرسومة المأنوسة لا يعدوها إلى غيرها ! وإذا كان هناك توسّع فى الدلالة فإن دائرة الصالحات تشمل شئون الدنيا عندما تصحبها النية الحسنة ، وهذا التوسع وصف لبعض الخاصة من أهل الدين . .

وأحسب الأمر يحتاج إلى إيضاح وتدقيق ، فإن كلمة « الصالحات » تتسم بالشمول الذى يتناول كل شىء ويستوعب كل مسلك ، ويستوى فيه ما حدد الشارع كيفيته وهيئته ، وما تركه لاختلاف الأزمنة والأمكنة تباشره النفس الإنسانية لتضع عليه بصماتها المؤمنة وتسوق به الحياة إلى الهدف الذى تشاء . .

بعض الناس إذا ذكرت النقود ، ذكر الدينار والدرهم أو الدولار والجنيه ، وإذا ذكر الدين ذكر الصلاة والصيام وما يدرى شيئًا عما وراءهما .

واقتصار التدين على نوعين أو أكثر من الطاعات المأثورة إزراء بحقيقة الدين ، وطمس لرسالته وآثاره ، وإعطاء الشيطان مساحات رحبة يجرى فيها كيف يشاء . .

تلوت سورة القصص ، وربطت آخرها بأولها ، فرأيت أن الله سبحانه شرح أحوال الاستبداد السياسى والطغيان الاقتصادى فى قصتىّ فرعون وقارون ثم ساق هذا القانون الحضارى الصارم ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين**﴾ (١) .

إنه بعد عشر صفحات من السرد التاريخى الحافل قرر هذه الخلاصة أن الاستعلاء والفساد يستحيل أن يأتيا بخير ، كل فرد مزهوٍّ بنفسه فوضوى فى سلوكه سائب فى إدارته ظالم لغيره ناس لربه لابد أن يجنى الويل من هذه الخلال .

---

(١) الآية : ٨٣ من سورة القصص .

إن عناصر العدل السياسى والاجتماعى من صميم الأعمال الصالحة ، ولن ينزل الوحى ليعلم المدير كيف يـدير ، أو المدرس كيف يعلّم ، أو الصانع كيـف يبدع أو السائق كيف يحترم الطريق فذلك كله تهتدى إليه الفطرة المؤمنة ، وتندفع إليه بالذكاء الطبيعى ، ومن ثم اقترن الإيمان والعمل الصالح . .

هذا العمـل الصالح تنـداح دائرته لتشمـل الدنيا كلهـا ، وحرية الحركـة فيه مطلقـة ما تستثنى منـه إلا المأثورات التـى جمّد الشارع قـالبها عندمـا قال مثـلاً « صلوا كما رأيتمـونى أصلّى . . . » .

وهذه المأثورات القـولية والعملية قليلة ، ووقتها محدد . . أما بقيـة الأعمال الصالحة فلا تكاد تحصر ، إنها الحياة كلها ، وحسب المسلم فى شرح موقفـه منها أن يتدبر الآية الكريمة ﴿ **قُل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين**﴾ [1] .

وهناك ملحـظ مهمٌّ فقـد يعترى العبادات المقررة مـا يطيح بثمـرتها ويبطل جـدواها ، وذلك عنـدما تتحول إلى عـادات بدنية تؤدَّى خـلال غيبوبة عقليـة ، والحق أنه لا خير فى قراءة بلا وعى ، ولا فى ركوع بلا خشوع .

ومع أن الصلاة عمـل من قمم الشرف الإنسانى فـإنها آخر ما ينحلّ مـن عرى الإسلام والسبب هو هبـوطها عن درجة مناجاة الله إلى أقـوال وأفعال ميتة لا تؤكد يقينـا ولا تؤسس خلقا .

وعندمـا تنحط العبـادات إلى هذا المستـوى فإن أعمالاً مـدنية أخـرى تشتد فيهـا حرارة الإخلاص ويتألـق فيها حسن القصد تكـون أرجح عند الله ، وأجدى على الحيـاة من هذه العبادات العليلة .

---

(١) الآية : ١٦٢ من سورة الأنعام .

وأكره أن أوازن بين عبادات معتلـة ، وعادات رفيعة ، لأن العصر الذى نحيـا فيه واهى الصلة بـالله ، وما أيسر أن يزهد مغـرور فى تنفيذ أوامر الله بـدعوى أنه يقوم بـأعمال صالحة أخرى . .

وإنما أبحثُ لنفسى أن أكتـب ما كتبت زجرا للمؤمنين الكسالى أن يسيئـوا إلى الطاعات بجفافهم الروحى ، وخوائهم العقلى ، وتحويلهم معالم التقوى إلى عالم من الأشباح ويختفى إذا جدّ الجدّ .

وأدهى من ذلك أن يتشبثوا ببعض الأعمال ويهملوا بعضا آخر .

إنه لو قضى عمـره قائماً إلى جوار الكعبة ، ذاهلا عما يتطلبه مستقبـل الإسلام من جهاد علمى واقتصادى وعسكـرى ، ما أغناه ذلك شيئـًا عند الله . . إن بناء المصانـع يعدل بناء المساجد ! فحراسة الحق كتعليمه .

وإقامة سياج حوله ، أيًا كان هذا السياج لا يقل عن الاعتناء بنصوصه .

المسلم مكلـف بإصلاح كـل عمل ، أو عمل كل صـالح ، وهذا الانشطـار المعيب فى السلوك البشرى مرض طرأ على أمتنا من انحـراف القرون لا من تعاليم الإسلام ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهـو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بـأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[1] .

وأول مـا أصاب النفـس الإنسـانية مـن عطـب توهمهـا أن الصـالحات لا تعدو رسـوم العبادات المرويـة فإذا أحـرز المرء نصيبا منها وأراد المزيـد كرر الصـلاة وكرر القـراءة ، لأنه لايعرف صالحات غير ذلك .

وما درى أن ميدان الصالحات يستوعب حركاته وسكناته كلها ، ويحوّلها إلى قوى تدعم

---

(١) الآية : ٩٧ من سورة النحل .

الخير لأن الصلاح تغيرٌ نفسى شامل يفرض على صاحبه حب الكمال والرغبة فى الاحسان ، فهو يتقلب فى الدنيا كما وصف الله **﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور﴾** [1] .

إن الشلل الذى أصاب أيدى المؤمنين فى ساحات الإنتاج ، وحجب عيونهم عن الملاحظة الذكية ، وجعلهم يُجار عليهم ولا يجيرون ، ويؤخذ منهم ولا يعطون ، ويتقدم غيرهم ويتأخرون . . إن هذا كله حطّ قدرهم وقدر الدين معهم !! .

وقد رأينا الولايات المتحدة تعلن حالة الطوارئ لأنها توهمت الروس سبقوها فى بعض آفاق المعرفة ، وصرخت أجهزتها الرسمية والشعبية منذرة بالويل إذا لم يقع تغيير عام .

فهل أعلنّا أى حالة من حالات الاستنفار والتفزيع بعدما تدحرجنا إلى العالم الثالث ، واقعا مُرًّا لا خيالا طائفًا !! .

والغريب أن الذين استيقظوا أو زعموا ذلك لم يقطعوا القيود التى جمّدتْ المواهب ، ولم يشخصوا العلل التى أعجزت الأمة ، بل سلكوا طرائق هازلة ، فمنهم من تخصص فى محاربة الفقه المذهبى فى الوضوء والصلاة ، ومنهم من جدد الحرب على الجهمية والأشاعرة ، ومنهم من ذهل عن أصول الحكم وقواعد السياسة الراشدة وتخصص فى طلب بعض الأحكام الفرعية ، ومنهم من عاد إلى التصوف غارقا فى وحدة الوجود ، ومنهم ومنهم .

والأمر يحتاج إلى فهم صافٍ صادق لما يتطلبه الإسلام فى الميادين التى انهزم فيها المسلمون روحيا وحضاريا ، وكيف نلحق من سبقنا ، ونربو عليه بما لدينا . . ولنبدأ بميدان العلم بعد هذا التمهيد الطويل . . . فإن أنكى ما أصابنا جاءنا من الجهل الكثيف بشئون الدنيا والدين ، أو بحقائق الأرض والسماء . . .

* * *

---

(١) الآية : ٢٢ من سورة لقمان .

لماذا جفت ينابيع هذا العلم ؟

هذه طرفة جديرة بالتسجيل والتأمل نقدمها بين يدى بحثنا ! .

فى جامعة تونس أستاذ فرنسى كان يدرس علم الضوء أو البصريات كما يسمَّى فى ثقافتنا القديمة ، وكان الأستاذ معجبا كل الإعجاب بقانون « الهازان » الذى اكتشفه أحد علماء العصور الوسطى ، وسبق به سبقا بعيدًا ، وفتح به فتحًا جديدًا . . .

وسأله الطلاب : لكن من « الهازان » هذا ؟ فقال : أظنه من كبار العلماء الإسبان ! .

وذهب الطلاب إلى الدكتور بشير التركى – وعنه نقلنا هذه الطرفة – فأجاب الرجل وهو دهش « الهازان » هذا هو الحسن بن الهيثم العالم العربى المسلم الشهير ، وهو راسخ فى علم البصريات ، وله نظرات يضارع بها أعظم علماء عصرنا ، ولا تقلُّ مكانته عن انشتين وأمثاله ، لأن العلم ما زال ينهل من كشوفه وأحكامه ، وقد يبقى العالم معتمدًا عليه ألف سنة أخرى ، وهو من أول الأساتذة الذين درسوا فى الجامع الأزهر . . قال الدكتور بشير : وأما قانونا الضوء المنسوبان إلى ديكارت فحسن بن الهيثم هو صاحبهما ، وواضعهما قبل ديكارت بستة قرون ، وكتابه علم المناظير لا يزال مرجعًا فى موضوعه . . .

وذهب الطلاب إلى الأستاذ الفرنسى بهذه الإجابة فلم ينطق بكلمة ، وكل ما حدث منه أنه أضرب إضرابا تامًا عن الإشارة من قريب أو بعيد إلى « قانون الهازان » هذا ، فما ذكره بخير ولا شر . .

وظاهر أن الأستاذ قد بوغت بعظمة عالم مسلم وهو يمقت الإسلام من الأعماق فلاذ بالصمت ، وطوى القصة كلها . . .

على أننى عدت إلى نفسى و إلى قومى أوجه اللوم بعد اللوم ، وأتساءل بغيظ : فما مكانة الحسن بن الهيثم فى تاريخنا ؟ وما مكانة غيره من علماء الحياة والكون كجابر بن حيان والخوارزمى .

إننا قبل أعدائنا كنا أسرع إلى إهالة التراب عليهم ، ربما ظفر بالشهرة أبو نواس قديما وعبد الحليم حافظ حديثًا ، أما الراسخون فى العلم فهم يسيرون إلى جوانب الجدران ، وينسحبون من الحياة كما جاءوها على استحياء ، أو فى استخفاء . . .

ولنترك الآن أنواع العلوم التى انشغل المسلمون بها ، والتى ظنوها للأسف هى العلم الجدير بالتحصيل والتفرغ ، ولننظر : ماذا كسبنا من قلة الدراية بالعلوم المادية والرياضية والكونية والصناعية وغيرها ؟ وأين استقرت بنا النوى بعد رحلة فى العلوم النظرية والقضايا الترفيهية استغرقت عدة قرون ؟؟ .

ذكرت فى مكان آخر خبر رحلتى إلى عاصمة « موريتانيا » الإسلامية ، وكيف أن بعثة صينية شيوعية هى التى اكتشفت المياه الجوفية التى تغذيها الآن ! ناس يأتون من آخر الدنيا شرقا إلى شاطئ الأطلسى غربا لهم خبرة فى علم المياه تتيح للعطاش أن يرتووا وهم فى بيوتهم ، وأن يرتفقوا كيف شاءوا بالسائل القريب البعيد ، تُرى أين كنا وماذا نصنع ؟ .

وما يقال فى الماء يقال فى النفط ، ويقال فى كل المواد المدفونة تحت الثرى أو المهملة فوقه .

أليست هذه كلها مما يدخل فى نطاق التوجيه القرآنى : ﴿ **أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء** ﴾ [1].

أليست هذه شيئًا ينظر فيه ؟ وتلتمس الحكمة من وجوده ؟ وتدرك عظمة الله من

---

(١) الآية : ١٨٥ من سورة الأعراف .

خلقه؟ لماذا يكون بصر الآخريـن إليها حديدًا وبصرنا إليها بليدا ؟؟ وما ثمـرة ذلك التوقف الأخرق؟ .

إن الله جعل معرفته والحفاظ على حقوقه مربوطين بدراسة الكون ، والتمكن فيه فإذا كنا خفافا فى هذه الدراسة ، أو كنا ذيولا لغيرنا فهل نحن بهذه الخفة عارفون بالله ، قادرون على صيانة حرماته ؟؟ .

يقول الله عن الناس : ﴿ **هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ [1].

فأى تناقض مذهل إذا مشى الكافـرون بين مخلوقات الله وهم يَسْبرون أغوارها ويعرفون أسرارها ويجيـدون استخدامهـا ، ومشى المؤمنـون بين هذه المخلـوقات لا يكـادون يفقهون حديثًا أو يحسنـون صنعًا ؟ كل ما يجيـدونه هو الحوقلة والتـواكل ! فإذا بدا طمـع شخصى طاروا إليه بسرعة البرق . . .

ويقول الله فى آياته الدالة عليه ، المتجدد منها والموجود الآن ! ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتـى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ [2]فتسأل مـن الذى رأى الآيات السابقـة ثم رأى الآيات اللاحقـة ، إن أولى الألباب يرصدون الزمـان ويعرفون ما يكون ومـا كان ، وتتحرك أفكارهم وأحكامهم مع اختلاف الليل والنهار . .

وقد رمقت بأسى سدنة الإلحاد وسدنة الشرك ولمحـت نشاطهم الذهنى والبدنى فى غزو الفضاء ثم عدتُ إلى قومى فجفَّ حلقى وخرس صوتى : أين هذه العلوم بيننا ، وما الذى أبعدها عنا . .

قـد يقول البعـض : الديـن تعريـف بـالله وتبصير بحقوقـه فلماذا تذهـب بنا بعيـدًا ؟ والجواب السريع : إن القرآن لما عرّفنا بالله عـرض علينا ملكوته ، ولفتنا إلى أرضه وسمائه ،

---

(١) الآية : ٢ من سورة التغابن .

(٢) الآية : ٥٣ من سورة فصلت .

والواقع أن أحسن تعريف بعظمة الله أن نعرف العالم الذى أقمنا الله فيه ، وجعل رسالتنا فى نطاقه . .

قرأت أن المخّ البشرى يزن كيلو جراما وربعا ، وأن به عشرة مليارات من الخلايا ، لكلّ خلية غذاؤها وبقاؤها وأجزاؤها ونماؤها أو فناؤها ، قلت : وفى الأرض نحو خمسة مليارات من البشر ! مَنْ القائم على إيجاد وإمداد كل خلية من هذه الخلايا ، وتوجيهها لتؤدى وظيفتها الدقيقة ، مَنْ ؟ وهتفت : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوّى ، والذى قدّر فهدى** ﴾ [1] .

إن شعرة واحدة من مائة ألف شعرة تنمو على بشرة إنسان أو حيوان تفتقر إلى العناية التى تفتقر إليها كل شجرة تنبت على ظهر الأرض بين خط الاستواء والقطبين . .

ولا أفيض فى حديث أنا فيه قاصر ، فقيام الأشياء بربها ما ندرى عنه إلا قطرة من بحر ، وأظن ما وصل إليه العلم فى نصف القرن الأخير يساوى أو يربو على كل ما حققه العلم فى القرون الأولى . .

والمهم هو المنهج الذى اختاره العلماء للكشف والبحث . . والمسلمون الأوائل عرفوا ثلاثة مناهج ، ذهب أجداها وأدناها إلى المنطق القرآنى وبقى اثنان خيرهما قليل وعناؤهما ثقيل ، ولهما بالقرآن الكريم علاقة ما ، وإن كانت علاقة يطول فيها الأخذ والرد .

ذهب المنهج الذى سلكه ابن الهيثم فى البصريات والخوارزمى فى الرياضيات ، وغيرهما من الرواد أصحاب الفطر السليمة ، وبقى منهج احتضنه علماء الكلام ، وآخر احتضنه علماء التصوف ، وكلاهما له أنصاره وثماره وما نحب الجور ولا المغالاة ولا انتقاص الكبار ، ما نحب إلا إنصاف ديننا وتبرئته من عيوب هو منها برىء . . .

---

(١) الآية : ١ - ٣ من سورة الأعلى .

أنا ممن يرون أن ابن سينا الطبيب أذكى مـن ابن سينا الفيلسوف ، وقد انتفع الأوربيون بطبه خلال ثلاثة قرون ، فماذا أفدنا نحن من فلسفته ؟ تسلية ذهنية ذكية عقيمة ! ! .

وأنا ممن يـرون أن الفارابى الموسيقى أذكـى من الفارابى المعلـم الثانى ! قد تكـون ألحانه الشجيّة مسعدة للناس بعـض الوقت ، أما خرافة العقول والأفلاك التـى أعجب بها مع ما أعجب من فلسفـة اليونان فهراء مـا كان يليق بالعقـل الإسلامى أن يتورط فيـه ، أو يقف بإزائه . .

إن العقل الإسلامى لو التزم الخط القرآنى المشغول بالملاحظة والتجارب المهتم بالتنقيب والحقائق ، الجوّاب فى آفـاق الأرض والسماء لكان لـه شأن آخر ، ولقـدّم نجدات صـادقة مثمرة للمنهج العلمى الكونى الباحث فى المادة لا فيما وراءها . . .

ونظرة سريعة إلى المنهـج العاطفى الصوفى الـذى أيده الغزالى بحرارة ومشـت فيه جماهير المسلمين باخـلاص ، بيد أنى – قبـل إلقاء هذه النظرة – أريـد توكيد حقيقـة جليلة ! أن العلم بالله أشرف ألوان العلوم ، وأن المعارف الأخرى إن لم تكن وسيلة إليه فلا خير فيها .

إن المرء يفقد قيمته الأدبية والمادية يوم يكون نابغة فى فنٍّ ما أو فى الفنون كلها ثم هو بالله جاهل وعليه جرىء .

والعباقرة الذين يضعون أصابعهـم على زناد التفجير الذرى ، وينذرون بإهلاك الألوف المؤلفة لغـرض خسيس ليسـوا إلا قطعانـا من الـذئاب الكاسرة أهـانوا العلـم ولم يكرمهـم العلم ! ! .

نحن نحترم علوم الكون والحياة ، ونرى أنفسنا – بـاسم الله – مطالبين بافتتاح مغاليقها والتبريز فيها وذلـك كله نابع مـن إعزازنا لربنـا وحفاوتنا بصنعه ، وتلبيتنـا لطلبه أن نفكر ونستنتج . . ! .

والذى يدرس الكون بغير هذه النية كالذى يدرس قصرًا مشيدًا ليسرقه ، أو سيارة جميلة ليفرَّ بها .

بعد توكيد هذه الحقيقة أعود إلى المنهج الصوفى القائم على التأمل الباطنى ، والاستغراق الذاتى ، وتحويل العلاقة بالله إلى ذكر لأسمائه الحسنى يُحْصىَ بالألوف المؤلفة، فإذا سكت اللسان تَلَفَّتَ القلب ، وأشرقت البصيرة . . .

ليس هذا النهج ما أفدناه من كتاب الله وسنة الرسول ، بل أجْزم بأن العزلة الفكرية عن الكون انحراف عن الخط الإسلامى ، وفرار من تكاليف اليقظة الذهنية التى فرضها علينا القرآن ، بل قد تكون طريق العجز عن مقاومة الباطل ومؤازرة الحق . .

ثم إنى أرتاب فى أنّ تزداد الألفاظ المفردة أو الكلمات المركبة يورث علما عظيما أو يرفع صاحبه إلى مستوى عال من شهود المجد الآلهى ، وقد يكون هذا الأثر الجليل عقب قراءة كتاب فى الطب أو فى الفلك أو فى أفق من آفاق الكون الكبير . . .

إن أولى العلم هم الخبراء بالله ، الشائمون لأنوار وجوده ، المراقبون لقيامه على خلقه . .

وأبو حامد الغزالى له سهم كبير فى الدراسات الطبيعية والمادية وقد وصف عجائب الخلق وصف رجل مُطَّلع ، بل إن وصفه للعين البشرية يقترب من العلم الحديث ، ولعل ذلك هو الذى أعانه فى خلوته أو آنسه فى عزلته . . .

وعلى أية حال فنهج القرآن لا يتقدمه نهج أحد ، ويستحيل أن يحمى المسلمون دينهم ، وأن ينضج إيمانهم بربهم إلا إذا تفقهوا فى آيات الله العيانية والبيانية جميعًا ، وازدهرت لهم حضارة مدنية وعسكرية تغِلب ولا تُغلب وتقود ولا تُقاد ! .

هل لنا نصيب من العلم نقطع به هذا المشوار الطويل ؟ تلفّتُّ حولى ثم أطرقت واجما ! إن النصيب الذى لدينا هو ما يرميه خصومنا إلينا فنحن على فضولهم العلمية نعيش ! .

لقد استعدنا سيناء على النحو الذى عرف الناس ، فما استطعنا إلى الآن أن نبنى قرية مثل «ياميت» نستنبت البقول والورود فى الهواء ونصدر نتاجها إلى أوربا ، والعلم الذى فقدناه هو الذى فقده الجزائريون لما هبطت محاصيل الحبوب بعد الاستقلال ، وهو الذى

فقـده السودانيـون الذيـن يجوعون فـوق أخصـب أرض ، وهو الـذى فقده المسلمـون على التعميم لما مشوا تحت الشمس وعلى أبصارهم غشاوة .

ألا يضحـك الشيطان طـويلا عنـدما يـرى جهازًا علميـًا ضخماً عند الملاحـدة الذيـن يرفضـون عقيدة الألوهيـة ، وجهازًا علميًا ضخماً عنـد المشركين الذين يجعلـون الآلهة مثنى وثلاث ورباع ! فإذا جـاء أرض الإسلام لم ير إلا علماً مستوردًا من هنا ومـن هناك ، لأنه لا منابع له فى أرضه . . !! .

وقد حرص الأوربيون والأمريكيون على أن يظل هـذا العلم منقولا لا معقولاً ، مجلوبا لا أصيلاً ، مشترى لا مكتسبا حتى نظل فقراء إليهم أبدًا ، ما نستطيع من قيودهم فكاكا . .

يقول الدكتور بشير التركى : فى العهود الأولى للإسـلام أقام المسلمون صناعات جديدة عديدة فى ميادين شتى ، فبعد أن أخذوا كل مـا وصلت إليه الحضارات السابقة أبدعوا من جهودهـم ما أربـى عليها وصهـروا ذلك فى صناعـة متطورة كـانت دعـامة مكينـة لليقظة الإسلامية التى شملت العالم أجمع ، بل كانت طورًا عظيماً فى الارتقاء العالمى .

ثم سرعـان ما تدهـورت هذه الصناعة الإسـلامية ، وصارت أثـرا بعد عين ، وربما رأى الناس بقايا منها فى الصناعات التقليدية التى يراها السائحون الأجانب . .

أما الغرب فقد احتكر لنفسه فى العصور الأخيرة كل الصناعات التى تقوم على الطاقة ، وربما كان قليل الاكتراث ببعـض الصناعات التجميعية والتحويلية الموجّهـة للاستهلاك ! أما الصنـاعات الكبيرة فقد أحكم قبضتـه عليها واحتفظ بأصـولها لديه ، إنه يبيـع المحرك مثلاً، ولا يبيع كيفيـة صنعه ، ولا أسرار تكوينه وحفظـه وإدارته ، ومن ثم يبقـى المسيطر على سوق المحركات ، يبيع فيها قطع الغيار ووسائل الصيانة ومختلف الخدمات ، وهذا كله فى جميع الميادين المدنيـة والعسكرية . . . أى أننا نركب سيارة أنتجها هـو ، ويظل ارتفاقنا بها ما بقى يرسل قطع الغيار ويضمن وسائل الصيانة .

وكذلك قد نقاتل فى دبابة أو طائرة من صنعه ، لكن قدرتنا على القتال مرهونة بتعهده أن يمدنا . . . !! .

وفى ميدان الإعلام ترى كل أجهزة الإرسال والاستقبال ، السلكية واللاسلكية والمواصلات ، وتخزين المعلومات واستخدامها والآلات الحاسبة . . الخ . كل ذلك حكر للغرب وحده تأخذ منه بقدر ما يأذن ، فإذا طردك عن بابه بقيت صفر اليدين .

أين الصحوة الإسلامية فى مظاهر هذا العوز ؟ أين العلم الذى يسعفنا ويقيم لنا صناعة مستقلة ! ؟ أين العلم الذى يصون عقائدنا وآدابنا ويجعل يدنا العليا ؟ أين العلم الذى يُحكم علاقتنا بكتابنا وينقلنا إلى جوّه الممدود بين الأرض والسماء ؟ أين العلم الذى يقدرنا على أن نثير الأرض ونعمرها كما أثارها وعمرها غيرنا ، بل أكثر منه ؟ .

إن العلم الذى يوحى به الدين عند جمهور المسلمين ، شىء آخر قريب من الموت والاستسلام والضياع ، وذلك هو ذل الأبد . . ! .

وليتأمل القارئ المسلم فى هذه القصة التى تحوى ما وقع بين الولايات المتحدة واليابان عقب انهزام الأخيرة فى الحرب العالمية الثانية ، لقد قرر الأمريكيون أن يضعوا أيديهم على الخبرة اليابانية فى عالم الالكترونيات ، وأن يوجهوا النشاط اليابانى إلى إنتاج أجهزة الإعلام السمعية والبصرية لتباع ، بأرخص الأسعار على حين يستبقون الأجهزة الدقيقة الأخرى ، والخبرة العميقة بها حكرًا عليهم وحدهم ، كأجهزة الرادار ، والحاسبات الألكترونية والكمبيوتر ، ومالا نعلم من أدوات عسكرية (!) .

غير أن العلماء اليابانيين فطنوا إلى الخطة الاستعمارية الماكرة وقرروا نقل هذه الصناعة الرفيعة من طور الاستهلاك العادى إلى طور آخر أرقى وأذكى ، وأن يُحكموا قبضتهم القومية على جملة هذه العلوم .

ونجحت المشيئة اليابانية ، ولم تعقها الهزيمة العسكرية الهائلة دون الانطلاق إلى الغاية

المنشودة ، وأمست اليابان من البلاد الألكترونية الأولى فى العالم كله .

والعجب أن المركز الألكترونى الأمريكى « سليكون فالى » الذى كانت الولايات المتحدة تريده مَهْدَ هذه الصناعة للقرن الحادى والعشرين أضحى متخلفا عن المؤسسات اليابانية المعاصرة ، لقد سبق اليابانيون سبقا بعيدًا ، واعترف لهم نظراؤهم وأعداؤهم بالتفوق ، ذلك لأنهم ثابروا وصابروا حتى حققوا ما شاءوا . . . ! .

هل تحس أن الذكاء اليابانى وحده وراء هذا النجاح الرائع . . . ؟ كلا ! إن الاستقرار النفسى والاجتماعى فى طول البلاد وعرضها كان نعم العون فى ذلك المضمار ، كأن الحكومة جسد روحه الشعب ، أو كأن الشعب جسد روحه الحكومة ، لا انشطار فى عزم ، ولا اختلاف على هدف ، ولا تحاقد على منصب ! .

أما اليقظة التى عاصرت الصحوة اليابانية فى العالم الإسلامى فقد تبدّدت قواها فى الصراع الداخلى ، وذهبت جهود هائلة فى الدفاع والهجوم والأخذ والرد والإقرار والإنكار، إذ إن حكومات كثيرة كانت تريد نظامًا علمانيًا ، وترفض استدامة الفكر الإسلامى ، وكانت الشعوب وجِلَةً من هذه الطلائع المتمردة على عقائدها وتقاليدها ، ووقعت الأمة المسكينة بين « كماليين » يمقتون الإسلام ، وإسلاميين يخلطون الوحى بالخرافة والجد بالهزل ، وعندما يقع بأس الأمة بينها فهيهات أن تفلح فى جلب منفعة أو دفع مضرّة . .

إن اليابانيين لم يخاصموا دينهم - على ما به - ووجهوا قدراتهم كلها لكسب معركة الحياة ، فكسبوها ، أما المسلمون فقد استمكنت منهم الدسائس الصليبية والصهيونية ، وكان التدين فى أفكارهم ومسالكهم قد ابْتُلِىَ بِالْعَفَنِ فغشيهم من العدوّ ما غشيهم ! .

ويشاء الله أن أشعر بالقَهْر وأنا أخطّ هذهِ السطور ، لأن الإذاعات المحلية والعالمية تنقل إلىّ ما يقع الآن قريبًا منى فى تونس ، إن الذى وقع لم يخطر ببال وكان صداه لاذعا موجعا . .

لقد استطاع اليهود الجاثمـون على صدر فلسطين أن يرسلوا من مكان احتـلالهم ثلة من الطائرات المقاتلة ، قطعت الآف الأميال فى الجو ، وأُمِدَّت بالوقود وهى سابحة فى السماء ، حتى إذا بلغت تونـس تَعرَّفت على مقر هيئة التحرير الفلسطينيـة وسط الآف البيوت ، ثم شرعت ترجمه وما حوله بالقذائف حتى أحالته أنقاضا !! .

وبعد أن قـامت بما تشاء على خير وجه عـادت أدراجها إلى فلسطين قاطعة آلافـًا أخرى من الأميـال بعد نزهـة لطيفة قتلت فيها نحـو سبعين عربيا ، وجـرحت مثلهم ، هـذا كل ماحدث ! ! .

ولم أشغل نفسى بسماع التعليقات الماجنة والغثة من الأصدقاء والأعداء .

فإن عجزنا لا يحتاج إلى عزاء وقدرة خصمنا لا يغض منها تهوين ، واحتقار مجلس الأمن العالمى لقضايانا لا ينجح فيه تستّر .

وظاهـر أن رسوخ عـدونا فى علـوم الكون والحيـاة جعله يطـوى المسافـات الشاسعـة ، ويلطمنا كلما أحبّ ، إن ضراوته بنا كضراوة الصـائد الذى يطلق بندقيته على أسراب الطير والأنعام لينال منها ما يشتهى ! .

أما نحن فقد جعلنا الجهل نماذج للعجز ، تُظلم فلا نقتصّ ونضام فنستكين .

ولا يقيـــم على ضيـــم يـرادبه ... إلا الأذلّان عَيْر الحىّ والوتـــد !

هذا على الخسـف مربوط برُمَّتِه ... وذا يُشَقُّ فــلا يرثى لـه أحـــد !

هـل نعود إلى بنيـاننا الحضـارى لنعيد إليـه رسوخـه وشموخـه بالعلـم الحق والدراسـة الناضرة؟ .

إن لغتنا العـربية تكاد تكـون خالية مـن علوم الطب والصيـدلة والأحياء وأغلـب فروع الهندسة والكيمياء وعلوم الفضاء ، والآليات والأليكترونيات ، وفنون القتال فى البر والبحر والجو .

أفبهذا الفراغ نحمى دنيانا ونحرس إيماننا ونرد أعداءنا ونصون حمانا ؟؟ .

سمعت من إذاعة لندن خبرا بعثنى على الدهشة ، فقد تمخّضت الانتخابات التى وقعت أخيرًا فى ولاية « أثام » عن سقوط الحكومة ، ومجىء حكومة أخرى ! .

الحكومة الجديدة أعضاؤها من طلبة الجامعات !! والحكومة التى ذهبت كانت من حزب المؤتمر الهندى الذى يتولى الأمور فى عموم الهند . .

وما حدث يدل بداهة على نزاهة الانتخابات ، وعلى استقرار « الديمقراطية » فى القارة الهندية ، ولكنه يدل فى الوقت نفسه على أن الجماهير تقترف الغرائب ! والأمر يحتاج إلى شرح يسير . .

إن هذه الولاية تجاور « بنجلاديش » الإسلامية ويفر إليها باستمرار أعداد من المسلمين الذين تطاردهم الفيضانات والعواصف وأنواع المصائب ، وما يكاد هؤلاء المنكوبون يستقرون ويجدون لهم مرتزقا حتى يهجم عليهم أهل الولاية الأصليون ويديرون عليهم رحى الموت ، فإذا المذابح تفتك بالشيوخ والأطفال ، وتملأ البيوت بالثكل واليتم . .

وكانت حكومة الولاية تحاول اعتبار أولئك اللاجئين هنودا عادوا إلى بلادهم وتبذل بعض الجهد لتخفيف أحزانهم ، بيد أن الجماهير الحانقة على المسلمين رفضت هذا المنطق وأبت إلا الفتك بهم وشن حرب استئصال عليهم . .

الحق أن الاستعمار الصليبى الذى استقر فى الهند عدة قرون نجح فى زرع البغضاء للإسلام وأهله ، وجعل القومية الهندية تنظر إلى الإسلام على أنه دين فاتح غريب .

وقد استمات الانجليز فى ترجيح كفة الوثنية على عقيدة التوحيد واستغلوا الاضمحلال الفكرى الذى أصاب المسلمين فى تاريخهم الأخير . . فأفقدوهم مكانتهم الوطيدة فى الهند الكبرى .

وعند تقسيم الهند فقد المسلمون مليون قتيل على الأقل .

واليوم انتخبت الجماهير فى « أثام » حكومة مـن الطلاب الشبان ، وإنى أضع رأسى بين يدىّ أفكر فيما تأتى به الأيام ، وما قد يجدُّ من مذابح تجتاح بقية البائسين دون عائق ! .

على أنه يبقـى السؤال الذى لابـد منه : لماذا لايصلـح المسلمون أحوالهم فى بنجـلاديش ويستغنـوا عـن الـرحـلات المشئـومـة إلى أرض المذابـح والضغـائن ؟ لماذا لا يتغلبـون على العواصف والأنواء كما تغلب عليهـا غيرهم ؟ إن الله سخر الأرض للبشر ، ولم يسخر البشر للأرض ! .

إن الله مكّـن بنى آدم مـن البر والبحر ولم يمكـن البر والبحـر من بنـى آدم ! إننا نسينـا رسالتنـا من حيـث إننا مسلمـون ، ونسينا مكانتنـا من حيـث إننا بشر متميـزون على شتى الأحياء ! .

مـا هذا التحجـر الفكـرى ، والعجز الإنسـانى ؟ لماذا لا نبنـى سـدودا تنكسر عندهـا الأمواج ، وتزدهر الأرض وراءها بأنواع الزرع ؟ هكذا فعل غيرنا فما الذى يغلّ أيدينا .

كتب الأستاذ محمـد المجذوب هذه الكلمات النفيسة الصـادقة تحت عنوان « **أما لمآسى بنغلاديش آخر ؟ !** » يقول من غرائب الاتفاق أن أستمع فى يوم واحد إلى هذين الخبرين :

١ ــ لقـد تعـاون مـد البحر وهبـوب الأعـاصير على بنغـلادش فقضـى على الآلاف مـن سكانها . .

٢ ــ فى سجون بريطانيـة مجموعة من المجرمين ضاقوا بأوقـاتهم ، فرأوا أن يشغلوها بعمل نافع ، فقاموا بردم جانب من شاطئ البحر فأحالوه أرضا صالحة للزراعة بلغت مساحة غير يسيرة ، وهم الآن يطالبون المسئولين بأن يقسمـوا هذه الأرض بينهم ليتخذوا منها وسيلة إلى العمل الجادّ والاستقرار الذى يغير تاريخهم . .

ووجدتنى أُطرق بإزاء هـذين الخبرين مفكرًا متأملاً ، وقد شدّنـى اليهما معا ما تراءى لى

من الصلة بينهما ، ففى بنغلادش الفقيرة المهددة دائماً وأبدا بكارثة المدّ الذى يغتال مساكن الناس ، ويجرف المئات والالاف منهم بين الحين والحين ، تكاد تنحصر المشكلة فى ضيق الأرض التى شاء الله أن تكون أكثر مناطق العالم اكتظاظا بالسكان ، ثم بانخفاض مستوى شواطئها إلى الحد الذى يجعلها معرضة لغارات البحر المدمرة كلما تفاعلت أمواجه بالمد والجزر ، وتحت ضغط هذا الواقع يضطر هؤلاء المنكوبون للتسلل إلى ما يجاورهم من أراضى الهند ، فيتلقاهم التعصب الهندوسى بأصناف الفواجع التى ليس أقلها الموت بإحراقهم مع منازلهم . . وفى حين أنهم يتوقعون هذا المصير الحتم لا يجدون مفرا من اللجوء إلى ذلك الجانب من الهند بعد أن شحّت عليهم أرضهم بالقوت الذى يمسك الرمق . .

ولم يعد وضع هؤلاء المسلمين المرزّئين مما يمكن تجاهله بعد أن شهد ويشهد به كل الزائرين الذين ابتعثوا من دول الخليج للتعليم فى بنغلادش ، حيث يرون تزاحم المتسوّلين حيث اتجهوا ، وحتى أن الواحد من هؤلاء المحرومين ليعتبر القرش الذى يضعه المحسن فى يده غنيمة لا يحلم بأكبر منها . .

وطبيعى أن مشكلة كهذه من حقها أن تبعث كل ذى حسّ إنسانى على التفكير والتساؤل عما إذا كانت خارجة عن نطاق الحلول التى يتصورها العقل البشرى ، أو أن ثمة تخلفا عقليا وسياسيا هو الذى أبرزها فى هذا الوضع الذى يخيل للناظر أنها فوق الحلول ووراء كل امكانات الاصلاح . .

ومن هنا كانت الصلة بين مأساة آلاف البنغلادشيين ، هؤلاء الذين التهمهم البحر والأعاصير ، وبين عمل أولئك الفتيان الذين وجدوا ضالّتهم فى مصارعة البحر ، فمازالوا به حتى استطاعوا أن يقتطعوا منه تلك البقعة التى فتحت لهم أبواب الأمل فى حياة كريمة ، ولفتت أنظار الناس لاقتفاء أثرهم فى التعامل مع البحر لاكتساب أراضٍ جديدة يضيفونها إلى وطنهم ، ويجدون فيها المجال الرحب لزيادة مكاسبهم . .

* ولم يكن هـذا بالأمر الغـريب بالنسبة إلى أولئـك الأوربيين ، فغير بعيد منهم هـولندا ذات الأراضى المنخفضـة ، وقد سبقهم أهلهـا إلى مثل ذلك منـذ زمن بعيد ، ومـا يبرحون يكسبون كل يوم الحديث الجديد من اليابسـة ، ينتزعونها من البحر ويقيمون عليها السدود بوجهه ، لتـدفع غاراته وليـوسعوا بها من ثروتهم الاقتصاديـة ، التى يغزون بإنتـاجها أنحاء العالم .

وقد رأيت على شواطئ بومباى ـ بالهنـد ـ ـ صورا رائعة لهذا الجهد الذى أحال أجزاء غير يسيرة من البحر مناطق رُفِعت عليها مئات المبانى ، التى بينها ناطحات السحاب . .

ولنتساءل هنا ، لماذا عجزت طاقة المسلمين فى بنغـلادش عن التفكير بتغيير هذا الواقع الرهيب ، الذى يعيشـونه بين الفقر والموت ؟ هؤلاء المساكين الذيـن يعيشون فى الجزر المهيأة للزوال كلما تصاعدت حركة الموج من حولها . . أليس لهم أيدٍ تحسن العمل فتتعاون لإقامة السواتر الكافية من الحجارة والتراب حمايـة لأنفسهم من هذه الهجمات التى قلما تنقطع عن مساورتهم ليل نهار !! .

وهاتيـك الشواطـئ المعرضـة أبدا لهذا الزحـف . . أليس للمـلايين من سكـانها بعض القدرة على مواجهته بمثل ما تواجه به هولندا وبومباى أخطار بحريهما ! .

الحق أن الحيرة لتستغرقنـى حين أتصور هذه الفـواجع ، تُلـم بملايين المسلمين دون أن يتحركوا للاستعداد لها ومجابهتها بالتدابير الممكنة المعقولة قبل فوات الأوان .

عندما يفقد المرء حاسة الشمّ تستوى لـديه الروائح الكدرة والروائح العطرة ، وربما أماته غاز خانق يتنفسه وهو لا يدرى حتى يقضى عليه .

والمسلمون مـن بضعة قرون تنشر بينهم ثقـافات مغشوشـة أحدثت تغيّرات جوهـرية فى صورتهم الباطنة ، وقطّعتهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك . .

والتخلّف النفسى والذهنى لا تصاب بـه الأمم بغتة ، وإنما يجىء بعد أمراض تطول ولا

تجد من يحسـن مداواتها ، ولا أزال أحسّ أثر هـذه الأمراض وراء تخلف المدنـى والعسكرى والصناعى والحضارىّ ، إنه تخلّف يعانيه المسلمون فى آسيا وأفريقيا على سواء .

والذى يعنينى هو تبرئة الإسلام من هذه التبعـة إن الإسلام يهب للأمم الكسيحة آمالا تسعى بها بل يعطيها أجنحة تقدر بها على التحليق

وإننـى لأرفض وصـف العقل الإسـلامى الأول بـأنـه يكره الخرافة والخمول ، إن هذا الوصف يحط من قيمته ! إنه عقـل يبحث عن الحكمة ، ويحضّ على الانطلاق ، ويمضى بأتباعه إلى الصدارة ، لا بالدعوى ولكن بالجدارة .

وإذا كان هناك تبلّد أو تواكل أو استرخاء فمصدر ذلك أوضاع حاربها الإسلام وجرّها إليه جهلـة أغرار غشّوا علـومه وزوّروا شعائره ومـازالوا به حتـى جعلوا أمته دون غيرها من الأمم . . .

أريد أن أقول للذاهلين عن علوم الحياة إنكم تُفقدون الإسلام الحياة بهذا التفكير السقيم ، وتعجزونه عن مقاومة أعداء يبغون له الويل . .

لا يزال الإنسان هو العنصر الأول للنجاح فى كل ميدان ، والآلة تجىء فى المنزلة الثانية ، إذا كنـا فى ساحـة صنـاعيـة ، وكذلـك السـلاح يجىء فى المرتبة الثـانيـة إذا كنا فى ساحة عسكرية . . .

والإنسان المسلم مفتـوح البصر والبصيرة كما علّمه كتابه ، يمشـى على الأرض مكينا لا مهينا ، سيدا بين فجاجها لا عبدًا ، مخدومًا لا خادمـًا ، وليست أدرى ما عرانا حتى صرنا نأكل من غراس غيرنا ونلبس من نسيجه ونستورد ما يبدع !! ثم نقعد لنحوّل مجالس العلم إلى مجالس جدل ، ولنمضـغ قضايا تضر أكثر ممـا تنفع . . فإذا أُغير علينا صرخنـا نطلب السـلاح ، وهيهـات أن يجىء لأنه مـن مصـانـع المغيريـن ، أو ممـن يمتُّ إليهـم بـأوثـق الصلات . . !! .

إن ٣٠٪ من مسلمى العالم يحيون فى القارة الهندية المترامية الأطراف ، وقد رمقت أحوالهم الدينية والمدنية وشعرت بالأسى لأنها دون ما ينبغى ، وزادنى شعورًا بالقلق أن جماهير كثيفة بينهم وحولهم تعتنق الشيوعية وتسعى لفرضها بوسائل بارعة فماذا أعدّوا للنجاة بأنفسهم ورسالتهم .

وتتشابه مآسى المسلمين فى أقطار شتّى ، والغريب أن أحد الناس قال لى : إن الإسلام دين وافد على أوربا ، فعداوته تعتمد على أسباب قومية ! قلت له : إن الإسلام والنصرانية جميعًا وافدان على أوربا ، وقد كان الرومان وثنيين ، وكذلك كانت القبائل القاطنة بشرق أوربا وغربها ، فإذا كان لابد من إشباع النزعات الوطنية فلتعد الوثنية الأولى ، وليعبد الناس الأصنام ! وأحسب ذلك أحظى عند الحاقدين على الإسلام !! .

* * * *

قَضِيــة الأخـــلاق عنْدَنـــــا

هل تـرجع هزائمنـا العامة إلى أننا لا نملـك طائرات بعيدة المدى ، وإلى أننـا لا نصنع القنابل الـذرية ؟ بعض الناس يتصور أن عجـزنا الصناعى والعسكرى مـن وراء تخلفنا هنا وهناك ، وأن أمتنا لو ملكت هذه الأسلحة سادت وقادت ! .

إن هذا فكر سقيم ، والواقع أننا مصابـون بشلل عضوى فى أجهزتنا الخلقية ، وملكاتنا النفسيـة يعوقنـا عـن الحراك الصحيـح ، وأن مجتمعاتنـا تشبـه أحيـاء انقطع عنهـا التيـار الكهربائى فغرقـت فى الظلام ، ولابد من إصلاح الخلل الذى حدث كـى يسطع التيار مرة أخرى .

وعلاج الأعطاب الشديدة أو الخفيفة بالكلام البليغ أو النصح المخلص لا يكفى ! لابد من إزالة أسباب الخلل ، ومن إعادة الأوضاع إلى أسسها السليمة إلى فطرتها الأولى .

﴿ فطرة الله التى فطر الناسَ عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ [١] .

وقد راعنى أن خلائق مقبوحـة انتشرت بين الناس دون مبالاة ، أو مع إغماض متعمَّد ، واستمرت مـواقعة الناس لها حتى حـوَّلها الإلف إلى جزء من الحيـاة العامة ، ومن هنـا رأينا الاستهانـة بقيمة الكلمة ، ورأينـا قلة الا كتراث بإتقـان العمل ، ورأينـا إضاعة الأمـانات والمسئوليـات الثقيلة ، ورأينا القدرة على قلـب الحقائق ، وجعل الجهل علما والعلـم جهلا والمعروف منكرا والمنكر معروفا . .

---

(١) الآية : ٣٠ من سورة الروم .

إن قضية الأخلاق وما عراها من وهن أمر جلل ، إنك لاتستطيع بناء قصر شاهق دون دعائم وأعمدة وشبكات من حديد ، ولا تستطيع بناء إنسان كبير دون أخلاق مكينة ومسالك مأمونة وجملة من الخلال تورث الثقة ، وتأمل في قول أبي تمام :

وقد كان فوت الموت سهلا فردّه إليه الحِفاظ المرّ والخُلُق الوعْر!

إن ضمانات الخلُق الصلب في سيرة هذا البطل هي التي تعلو بها الأمم ، وتنتصر الرسالات ، وهي التي يستخذي أمامها العدو وتنهار الطواغيت ، وعندما ترى مجتمعا صارما في مراعاة النظام ، دقيقا في احترام الوقت ، صريحا في مواجهة الخطأ ، شديد الإحساس بحق الآخرين ، غيورًا على كرامة الأمة ، كثيرًا عند الفزع ، قليلا عند الطمع ، مؤثرًا إرضاء اللّه على إرضاء الناس ، عندماترى هذا الخلال تلتقي في مجتمع مّا ، نثق أنه يأخذ طريقه صُعُدًا إلى القمة .

وقد كان المسلمون الأوائل نماذج أخلاقية تجسّد فيها الشرف والصدق والطهر والتجرُّد ، ولذلك تصدروا القافلة البشرية عن جدارة ، ولا غرو كانوا صُنْعَ الإنسان الذي وصفه الله بقوله ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [1] وكانوا نَضْح روحه العالي فمشت وراءهم الشعوب تتعلم وتتأسى .

أما اليوم فنحن نجري ونلهث وراء الشعوب الأخرى دون أن نصل إلى مستواها ، لأن وزن الأخلاق عندنا خفيف وارتباطنا بها ضعيف . .

والأخلاق مجموعات متنوعة من الفضائل والتقاليد تحيا بها الأمم كما تحيا الأجسام بأجهزتها وغددها ، فإذا اعتلّت هذه المجموعات وانفكت رأيت ما لا يسُر في مسالك العامة والخاصة . .

في كثير من البلاد الإسلامية رأيت الوساخة في الطرق والبيوت أو في الملابس والأبدان، ورأيت الفوضى في سير الأشخاص والعربات ، ورأيت الإهمال والتماوت في تناول

(١) الآية : ٤ من سورة القلم .

السلع والـواجبات ، ورأيت دوران النـاس حول مآربهم الـذاتية ونسيانهم المبـادئ الجامعة والحقوق العامة ، ورأيت انتشار اللغو والكسل وفناء الأعمار فى لا شىء !! .

الكـذب فى المواعيد وفى روايـة الأخبـار ، وفى وصـف الآخريـن أمـر سهـل ! وكذلـك استقصاء الإنسان فى طلب مـا يرى أنه له ، واستهانته فى أداء ما هو عليـه ، ونقصه ما هو قادر على إتمامه ، وفقدان الرفق فى القول والعمل وشيوع القسوة والمبالغة فى الخصام ! .

ثم تحوُّل الآداب إلى قشور يطلُّ من ورائها الريـاء بل إن الرياء - وهو فى الإسلام شرك - يكاد يكون المسيطـر على العلاقات الاجتماعية ، وهو الباعـث الأول على البذخ فى الأحفال والولائم والمظاهر المفروضة فى الأفراح والأحزان . .

العجز الإدارى قـد يرجـع إلى أسباب خلقية وعلميـة ، بيد أن الأسبـاب الخلقية عنـدنا أسبق .

الفشل العسكرى قد يرجع إلى أسباب نفسيـة وفنية وصناعية ، بيد أن الأسباب النفسية عند العرب أظهر وأقوى . .

ويجزم أولو الألباب بأن السـاسة العرب والقادة العرب وراء كل نصر أحـرزه بنو إسرائيل خلال أربعين سنة .

بل إن قادة اليهود صرّحوا بأن المكاسـب التى أحرزوها تجاوزت الأحلام وسبقت الخيال! إنهم ما خططـوا لها ولا احتالـوا لبلوغهـا ! إنها هديـة من الانحـلال العربـى ومن ضعـف الأخلاق ، إنها غنيمة باردة لخصوم يحسنون انتهاز الفرص ! .

وأى فرصـة أغلى من أن يكـون القائد العـربى صريـع مخدِّرات ومسكرات ، وأن يكـون الزعيـم العربـى قد وصـل إلى منصبه فوق تـلٍّ من جماجـم خصومـه ، ورفات بنـى جنسه المدحورين أمامه .

إن هذه أعظـم فرصـة لقيام دولـة إسرائيل ، لقد قـامت فى الفـراغ المتخلف مـن ضياع

الأخـلاق لدينـا ، وتحوُّل المسلمين إلى أمم مقطعـة ، خربـة الأفئدة ، مُخلـدةٍ إلى الأرض ، جياشة الأهواء ، باردة الأنفاس . . .

إننـا نقول لغيرنـا : النار مصير الملاحـدة والمشركين ، لسوف يُجزَوْنَ مـا يستحقون لقـاء كفرهم بالله ونسيانهم له ! .

ليت شعرى لماذا لا نقـول لأنفسنا : والنار كذلـك مثوى المرائين الذين عَمـُوا عن وجه الله ، وأرادوا الحيـاة الدنيـا وزينتهـا ، واستماتـوا فى طلب الشهـرة والسمعـة والمال والجاه ، وكانت علاقتهم بهذه الأهواء أشد من علاقة المشركين بأوثانهم ؟؟

لماذا لم نقل لأنفسنا : إن أول مـن تُسَعَّر بهم النار ، رجال دين يطلبون الـدنيا ، ورجال مال وحرب ينشدون الوجاهة والسلطان ؟ ألم يقل لنا نبيناً ﷺ ذلك ؟ .

إننى طفـت فى أقطار إسلاميـة كثيرة ، فرأيت سطـوة العرف أقوى مـن سطوة الشرع ، واتباع الهوى أهم من اتباع العقل ! .

وللناس قدرة عجيبة فى إلبـاس شهواتهم ثوب الدين ، وتحقيق مـآربهم الشخصية باسم الله . .

وأذكر أنى كنت فى شبابى الباكر أغشى بيـت تاجر أرمنى كى أدرس اللغة العربية لأحد أولاده ، وكانت الأم ترقب ابنها وتذكره بما أفرضه عليه من واجبات . .

وخلال سنة لاحظت أن هذه الأم ، لا ترتدى إلا ثـوبين أو ثلاثة من نوع رخيص ولكنه نظيف وأنيق ، وكثيرًا ما كـانت تعين زوجها فى دكانه وهى على هـذه الحال من قلة التكلف وتواضع الملابـس . . على حين كنت أرى الأسر الإسلامية فى دنيا أخـرى ! ما تكتفى المرأة إلا بالعشرات من الثياب الغالية . . .

ورأيت عرس يهودى يبنـى بزوجته - قبل قيـام دولة إسرائيل - فلم أر مـا يثير الانتباه ، وتذكرت وصف حافظ إبراهيم لعرس عربى :

سال فيه النضار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجرى نضارا ! !

قلت : مـاذا تفعل أمتنـا بنفسها ؟ وإلى أين تسير ؟ ومـا تلك الأخـلاق والتقاليـد التى تحكمها ؟ .

اتصلت بى فتاة فى أواخر شهر رمضان عن طريق الهاتف ، وقالت : نحن نسمع دروسك ، وربما كان لها أثر حسن ، أرجوك أن تنصح الآباء ألا يعضلوا بناتهم ، إن أبى ردَّ ثلاثة من الخطّاب أتوا يطلبوننى ، والسن تتأخر بى ! قلت : لعل فى دينهم، أو مروءتهم ما يصرف النظر عنهم ! قالت الفتاة فى يأس : إن الإيمان والأخلاق آخر شىء ينظر إليه ! المهم المال والجاه ! المهم الحسب والنسب ! .

ودرست أوضاع الزواج فى أغلـب البلاد الإسلامية ، فوجدت النفـاق الاجتماعى يهيمن على السلوك : كم سيدفع لشراء الحلى والملابس كم سيدفع لإقامة الأحفال والولائم ؟؟ كم سيدفع لتقديم الهدايا واقتناء الأثاث العصرى ؟ .

ثـم هذا العـريس المتقـدم من أى قبـائل ؟ إذا لم يكـن من الحزب النـازى فلن يصلـح لفتاتنا، ولو كان مخترع الأقمار الصناعية . . .

الواقع أن أولى الألباب يحارون فى فهم شبكة التقاليد التـى تسود عالمنا الإسلامى ! وهم يوقنون بأنها بعيدة عن تقوى الله ، ورعاية المصالح . . .

إن الجماهير تغض الطرف عمدا عن مسالك للشبـاب قبل الزواج تذبح فيها أعراض ، وتبيد فضائل ، إلى أن يتيسر الزواج وفق المواصفات التى وضعها الشيطان ! .

وعندما تكون الـرذيلة جزءًا لابدّ منه فى الحياة الاجتماعية فعفاء على الـدين ، إنه سيكون عنوانا لا مفهوم له ، أو اسما لا حقيقة له ، ولا معنى للمسجد بجوار ما خور ! .

إننى أتأذّى عنـدما تزوَّر الانتخابات فى بلـدٍ مَّا ، لا لأن نفرا من الشطـار سوف يسرقون مناصب لا يستحقونها - وهذا وحده جريمـة - بل مصدر الأذى مرور الكذب فى هدوء ، واستقـرار شهادة الـزور دون اكثراث ، ويـألـف الكبار والصغـار أن تطمس الحقيقـة دون نكيرا .

وأنه لحما بهذه الخلائق جديرة بالموت . . ! .

ما عرفناه من تعاليم الإسلام ، ومن سيرة رجاله ، أن الدين والخُلُق قرناء جميعًا ، وأنه إذا صح الإيمان ، وصحّت العبادات التى فُرِضَتْ معه ، ازدهرت الفضائل وتعامل الناس بشرف ونبل وتراحم وتسامُح ، واستخفى الغدر والخبث والشره والزور . . . الخ .

لقد ورثنا ثروة كبيرة من الآداب النفسية والاجتماعية ، يتدبرها المرء فيتساءل : إلى أى أفق من الكمال والسناء ترفعنا هذه النصوص لو أننا اعتصمنا بها وحوّلناها إلى مسالك حيّة ؟ .

خذ هذه النماذج السريعة : قال رسول الله ﷺ : « إن الفحش والتفحُّش ليسا من الإسلام فى شىء ، وإن أحسن الناس إسلاما أحسنهم خلقا » ! .

وقال : « إن الله عزّ وجلّ ليعطى على الرفق ما لا يعطى على الخرق ، وإذا أحبَّ الله عبدا أعطاه الرفق ، ما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حُرموا الخير » .

وقال : « تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دَلْوِك فى دلو أخيك لك صدقة وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة » .

وقال : « والذى نفسى بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا » .

وقال ابن عباس مفسرا قوله تعالى : « **ادفع بالتى هى أحسن** » [1] الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا - يعنى المسلمين - عصمهم الله وخضع لهم عدوهم . . ! .

وعن النعمان بن بشير كنا مع رسول الله ﷺ فخفق رجل نعس - وهو على راحلته ،

---

(١) الآية ٣٤ من سورة فصّلت .

فأخذ رجل سَهْمًا من كنانته فانتبه الرجل فزعا ، فقال رسول الله ﷺ : لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا .

وقال رسول الله لاصحابه : تدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ! ثم قرأ ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا** ﴾ [1] .

وعن أبى كثير السحيمى عن أبيه قال : سألت أبا ذرّ فقلت : دلّنى على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة ! قال أبو ذرّ سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : يؤمن بالله واليوم الاخر ، فقلت : يا رسول الله ، إن مع الإيمان عملاً ، قال : يرضخ - يعطى مما رزقه الله ، قال : أرأيت إن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ منه ؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر! قال : قلت يا رسول الله أرأيت إن كان عييًّا لا يستطيع أن يأمر أو ينهى ؟ قال : يصنع لأخرق ! قال : أرأيت إن كان أخرق - عاجزًا - لا يستطيع أن يصنع شيئًا ؟ قال : يعين مغلوبا ! قال : أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مغلوبا ؟ قال الرسول : ما تريد أن يكون فى صاحبك من خير !! يمسك عن أذى الناس ! قلت : يا رسول الله ! إذا فعل ذلك دخل الجنة ؟ قال : ما من مسلم يفعل خصلة من هؤلاء إلا أخذتْ بيده حتى تدخله الجنة ! .

تأمّل فى هذا الاستقصاء ! وتأمّل فى أن خلال الخير هى التى تقود الرجل من يده فتدخله الجنة ! .

إن السلبية لا تزكّى فردًا ولا جماعة ، والأمة التى تدور حول مآربها وحسب ، لا تزيد عن أعدادها من الدواب فى الحقول ، أو الوحوش فى الغابات . .

وهناك رذائل تتجاوز مقترفيها ويمتد أذاها إلى آماد بعيدة ، فالغش فى الامتحانات أو

---

(١) الآية ٥٨ من سورة الأحزاب .

السلع أو المبانى أو رصف الطرق ، أو غير ذلك من شئون الناس خاصة أو عامة ، رذيلة مدمَّرة النتائج ، وقد نفى النبى عليه الصلاة والسلام صاحبها من جماعة المسلمين « من غشّنا فليس منا » [1].

والواقع أن فشُوَّ الغش فى مجتمعنا ، وقلته فى مجتمعات أخرى هدَّ ركننا وأضعف قوانا وزعزع الثقة فينا ! .

وبعض الجامعات الكبرى ترفض الإجازات العلمية الممنوحة من بعض معاهدنا لأنها لا تطمئن إلى قيمتها ، كما أن بعض المستهلكين يرفض السلع التى نصنعها لأنه لا يطمئن إلى جودتها ! أفيشرفنا هذا الوضع ؟ .

وكما نفى النبىُّ ﷺ أن يكون الغشاشون من الأمة نفى أن يكون الهابطون بأقدار الكبار، الجاحدون لمكانة العلماء من الأمة « ليس منا من لم يوقّر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » .

والحقُّ أن فواجع رهيبة أصابت المسلمين بسبب غمط الأذكياء وتقديم الأغبياء ، والعرب يرجحون عصبية الوطن والنسب على الكفاءة العلمية والادارية ، والمستبدون من الحكام يقدمون مشاعر الزلفى والملق على القدرة الرائعة والخبرة الواسعة .

وقد كنت أوازن بين قادة الشيوعية والصليبية من ناحية وقادة المسلمين من ناحية أخرى فأشعر بغصَّة ، القوم يقدمون أعظم من لديهم ونحن نقدم ما تيسر . . . !! .

والأخلاق ليست شيئًا يكتسب بالقراءة والكتابة أو الخطابة والدعاية إنها درجة تكتسب بالمعاناة الشديدة ، كيف تنتقل من أدنى إلى أعلى ؟ كيف تنتقل من الطراوة إلى الصلابة ؟ والمرء فى هذا الميدان يصنع نفسه ، وهو أدرى الناس بما يشينه من كسل أو بخل أو

---

(١) رواه مسلم .

خوف . . الخ ، فيرسم طريق الشفاء ومراحل الخلاص ، ولا يزال يتابع السير ، ويغالب العقبات حتى يبرأ من علله . .

على أن للجماعة الإنسانية دخلاً كبيرًا فى إدراك هذا النجاح ، وقد علمنا أن هناك بيئات تنبت الذل وأخرى تنبت العز ، وبيئات تنبت التواصل والتعاون وأخرى تنبت التحاقد والتحاسد .

وكان فى الامكان أن تتألف جماعات أو مدارس أو طرق لهذه التزكية المنشودة ، بيد أن رجال الطرق لدينا اعتمدوا على أوراد وبدع لا خير فيها ، وفقدوا المقدرة العلمية والعملية على التسامى بأنفسهم وبالأجيال ، فأساءوا ولم يحسنوا ، ومن هنا لم تجد الأخلاق التربة التى تزكو فيها وتزهو . . وعاش الناس وفق ما أتيح لهم من طبائع وتقاليد . . .

وكم كنت أودّ لو وجد الأستاذ المخلص الذى يتعهد الناشئة ويبصر ميولهم ومسالكهم ، فيقوِّم ما اعوج بأناة ، ويصلح الأخطاء بمحبة ، ويحل العقد النفسية وينشط الملكات الذكية ولا يزال يصحبها بتوجيهاته حتى يخلق من الأطفال الصغار أبطالاً كبارًا ، كل يمضى حسب قدراته ﴿ **ولكل وجهة هو موليها** ﴾ [1] .

وعصرنا لا يسمح بوجود هذا الأستاذ ، لأنه أوقد جذوة التنافس بين الناس ، وبغّض لكل امرئ وضعه ، فهو لا يبقى فيه إلا ريثما يتحول عنه إلى منصب أعلى .

ويغلب أن ينتقل هذا الأستاذ من منصبه العلمى إلى منصب ادارى أحظى لدى الناس ، فلا يبقى فى ميدان التربية الحقيقية إلا من فاتته القافلة وأكرهته الأيام على البقاء . . ! .

والأخلاق لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب على اختلافها ، وتتحاكم إلى منطقها ، وربما اختلفت تقاليد وأحكام ، لكن الأخلاق تظل مرتكزة إلى ما أودع الله فى الفطر من تحسين الحسن وتقبيح القبيح . .

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

ونحن نعلم مـن ديننا أن من أركان النفاق الكذب فى الحديـث ، والخُلْف فى المواعيد ، والخيانة فى الأمانات ، والغدر فى العهـود ، والفجور فى الخصومات . . والناس فى المشارق والمغارب ما ينكرون شيئـًا من هذا ، وما يحترمون كاذبا ولا غـادرًا . . إلا أننا نلفت الأنظار إلى حقيقة لها خطـرها ، إن الأخلاق فى أرضنـا تتصل اتصـالا وثيقًا بالإيمان ، فـإذا اهتزت العقيدة ظهر النقص ، ونجم الإثم ، واضطربت الأمة كلها .

وقد أصابنـا الاستعمار العالمى فى صميمنا عندما أوهى الإسـلام واستبعد إيحاءه فى الحياة العامة ، لقد تبع ذلك انهيار خلقى محزن ، وميوعة لا تستقر فيها على شىء ! .

ربما كانت للقوميات الأخرى فلسفات تتماسك بها ، أما فى دار الإسلام فإنه مع استبعاد الإيمان ومـواثيقـه وشعائره انحلـت الأفـراد والجماعـات على نحـو لم تعـرفه بـلاد أخـرى ، وتبجّحت الخيـانة ، وفجر الأقـوياء ، ولصق الضعاف بـالحضيض ، وصار طلـب الخبز النداء الأول ! وارتضى الكثيرون أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب . . ! .

ولكى يعـود سلطان الأخـلاق إلى عرشـه يجب أن يعود اليقين إلى الأفئـدة ، وأن تألـف الجماهير الصلاة ، وأن تنتصر الفضائل على الشهوات ، وألا يُحترَمَ كذوبٌ أو يتقدم مفرّط .

وأرى أن يتم تصنيـف الأخلاق وفق مقتضيـات العصر ، فهناك أخلاق تُشرح بـدقة فى التعامل بين الحكام والجماهير ، وأخرى بين الجنسين فى شتـّى الميادين ، وأخرى بين العمال وأصحـاب العمـل ، أو بينهـم وبين العمل نفســه . . وفى الإسـلام مـدد لا يغيـض لهذه الغايات كلها .

في عَالــــمِ المرويـــــَات

قرأت هذه الرواية المنسوبة إلى الشعبى - وهو من التابعين - وضقت بها ضيقا شديدًا .

وقبل أن أنقلها ألفت الأنظار إلى تفاهة نفر من الناس يعيشون داخل قوقعة من أهوائهم ثم يحاولون عقد صلح بين الدين الحنيف وأهوائهم الشاذة ! .

هذا امـرؤ مصاب بجنون العظمـة ، تقول الروايـة : إنه قصـد الكعبة طالبـًا من الله أن يمنحه ملـك العالم الإسلامـى ، فإذا خرج عليـه أحدٌ أمكنه الله مـن ضرب عنقه (!) أى دعاء هذا ؟ .

وهذا امرؤ آخر متواضع يطلب ملك العـراق فقط ، بيد أنه يضم إلى هذا الطلب الزواج من امرأة بعينها ، سمَّتْها الرواية ! .

لم أشك فى أن الروايـة مكذوبة ، وأن الشعبى أعقـل من أن ينقل هذا الهراء لكـن الذى أهمنى هو سـوء تصوُّر بعض الناس لحقـائق الدين ومراميـه ، فليس الدين كَبْتـًا للشهوات الجامحة ، وليس رفعا لمستـوى النفس ، وليس نشدانًا لـلآخرة ، بل هو جـراءة على الوقوف بين يدى الله لطلب ما لا يليق منه - سبحانه وتعالى . . ! .

والغريـب أن القصة تنتهى بـدعاء من الصحابى الكريـم عبد الله بـن عمر ، فإنه لما رأى أولئك النفر يسألون الله الدنيا ومتاعها ذهب هو إلى الكعبة وطلب من الله الجنة .

قال الراوى : فبشّره الله بإجابة سُـؤْله ! كيف بشره ؟ سلبه بصره ! ومن صبر على العمى دخل الجنة !! .

ولأنقل الرواية بعد هذه التقدمة . . . فهى نموذج لتفكير أقوام يعيشون فى عالم المرويات التى لا يضبطها فقه ولا وعى . . .

نقل ابن ظهيرة عن الشعبى أنه قال : رأيت عجبا كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن الزبير وأخوه مصعب وعبد الملك بن مروان فقالوا بعد أن فرغوا من حديثهم ليقم رجل بعد رجل فليأخذ بالركن اليمانى وليسأل الله تعالى حاجته فإنه يُعطى من سعة ، ثم قالوا لعبد الله قم أولا فإنك أول مولود فى الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليمانى ثم قال : اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم ، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ﷺ أن لا تميتنى من الدنيا حتى توليني الحجاز ويسلم علىّ بالخلافة وجاء وجلس ، ثم قام أخوه مصعب فأخذ الركن اليمانى فقال : اللهم إنك رب كل شيء وإليك كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء أ لا تميتنى من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجنى سكينة بنت الحسين وجاء وجلس ، ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليمانى وقال : اللهم رب السموات السبع والأرض ذات النبات بعد القفر ، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك وأسألك بحرمة وجهك ، وأسألك بحقك على جميع خلقك وبحق الطائفين حول بيتك أن لا تميتنى حتى توليني شرق الأرض وغربها ولا ينازعنى أحد إلا أتيت برأسه ثم جاء وجلس .

ثم قام عبد الله بن عمر حتى أخذ بالركن ثم قال : الله يا رحمن يا رحيم أسألك برحمتك التى سبقت غضبك ، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك أن لا تميتنى من الدنيا حتى توجب لى الجنة .

قال الشعبى فرأيت كل واحد وقد أعطى ما سأل وبشر عبد الله بالجنة ، قال ابن ظهيرة : ولقائل أن يقول : ما الدليل على وجه البشرى ؟ .

والجواب من وجهين :

الأول : أن ابن عمر كان قد كُفّ بصره بعد ذلك وقد وعد النبى ﷺ « من ابتلى بذلك بالجنة » - كما فى صحيح البخارى .

والثانـى : أن الثلاثة لما أعطوا مـا سألوه كان ذلـك أدلَّ على إجابة دعاء الجميـع إذ هو اللائق بكرم الله وسعـة عطائه ، وكان سيدنا ابن عمـر من الورع والزهد والصلاح بـالمكانة التى لا تجهل كما فى مناقبه (كذا فى الجامع اللطيف ٤٢) .

عندما قرأت هذه الحكاية منسوبة لمحدث فقيه قلت : كيف لم يشعر التابعى الجليل بما فى هذا الدعاء من نُكْر ؟ أيجوز أن يكون عبد الله بن الـزبير طالبَ ملك قاتَلَ دونه ومات فى سبيله ؟ .

ألا يعرف عبد الله أن سؤال الإمارة لا يجوز ، وأن طالبها لا يُولَّى وإذا رفضت أن ينسَبَ هذا المسلك لعبد الله ، ورفضت أن ينسب مثله إلى أخيه الشجاع مصعب ، فهل يجوز أن يطلب عبد الملك أن يمكنه الله من قتل الذين يشغبون على سلطانه الفذ ؟ .

أهذه عبادة الله ! فما عبادة النفس إذن ؟ .

وأنتقل إلى موقف الرجل العابد المجاهد عبد الله بن عمر الذى شهد مع رسول الله ﷺ معاركـه الوثنيـة ، وبقى طيلـة عهد الخلافـة صواما قـواما منكـرًا لذاتـه مبتعدًا عـن الفتن مستغرقًا فى طلب الآخرة ! .

أيُنسى هذا الماضـى الوضىء كله ، ولا يستحـق به شيئًا حتى إذا فقـد بصره قيل : هذا بشير الجنة ؟ .

أعرف الحديـث القدسـى الصحيح « إذا ابتليـت عبدى بحبيبتيـه فصبر عوضتـه عنهما الجنة» . وفسر النبى ﷺ حبيبتيه بعينيه .

وتصبير الإنسان على ما أصابه هو من عزائم الـدين ! والرضا بقضاء الله طريق لا ريب فيه إلى الجنة . . .

ولكنا نحفظ أن رسول الله ﷺ كان يستعيذ بالله من سيئ الأسقام والأوجاع ، ومن أدعيته : « اللهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوّتنا ما أحيْيتنا ، واجعله الوارث منا ؟ » .

أى لا تحرمنا من هذه الحواس ما بقينا فلا تفارقنا ما دمنا على ظهر الأرض .

ترثنا بعد أن نفارق نحن الحياة ولا نرثها ونحن أحياء . .

هذه طبيعة البشر ، وفطرة الله فى الأنفس ، فليس يستحب أحد لنفسه فَقْدَ سمع ولا بصر ، ولا بشرى فى هذا ! فإذا أصيب كما أصيب يعقوب صلوات الله عليه صبر واحتسب وتعلّق بثواب الآخرة ! .

لكن ناقل الرواية التى أثبتناها هنا كان من ضيق الفقه بحيث ذهل عن ماضى ابن عمر الزاهر ، وقال : مادام الله قد عجل الإجابة لطلاب الملك والنساء ، فالإجابة المعجلة لابن عمر أن يفقد بصره ليدخل الجنة . . ! .

ويؤسفنا أن كثيراً من النقلة للأخبار مبتَلَوْن بهذا التصور العقلى ، وذلك ما جعلنى أقول فى كتاب آخر : لا سنة من غير فقه ! .

وعالم المرويات واسع الأرجاء ، ونحن نستقبله كل صباح عندما نقرأ الصحف التى تصدر كل يوم ، أليست تروى لنا أنباء ما يقع فى الدنيا ؟ وهذه الصحف الناقلة للأخبار أنواع ، منها ما هو جاد دقيق نثق فى مصادره ونستريح إلى تعليقاته ، ومنها ما هو معروف بالتهويل والاثارة نأخذ الحقائق منه بقدر . .

وإذا كانت الصحافة والإذاعة ترويان ما يقع الآن فإن التاريخ السياسى والأدبى يروى لنا ما وقع فى الماضى القريب والبعيد . . .

والماضى سناد الحاضر ، وكثير من التيارات المعاصرة تنبجس من الأيام الخالية ! ونحن نقرر ذلك لندرك أن التعامل مع عالم المرويات لا محيص عنه ، ولا عيب فيه . .

إنما يكمن العيب فى تلقى الأخبار دون تمحيص ، وفى قبول الروايات دون رويَّة ، والأمم ذوات الأديان تعتمد فى إيمانها وسلوكها على ما آل إليها من تراث ، ولسنا - نحن المسلمين- بدعا فى الاستقاء من الوحى الذى نزل ، استفتاؤه فى أمور كثيرة .

ومن الواجب أن نعرف كيف تلقينا ما جاءنا ، فما كنا ، ولن نكون ، أتباع أوهام ! إننا

نصدق ما لا يكذبه عاقل ! ولدينا من مقاييس النقد مالا يعرفه الآخرون . .

ولنذكر بادئ ذى بدء أن القرآن الكريم أساسنا ، وهو كتاب ثابت ثبوت السماوات والأرض والليل والنهار، وحوله سياج من التواتر جعله محفوفا باليقين من جهاته كلها . . .

والكتاب تحفظه عن ظهر قلب جماهير من المؤمنين وهو معروض على أولى الألباب فى كل آن يتدبرونه ويتساءلون عما يعنُّ لهم فيه . .

ونحن المسلمين نرى فى القرآن الكريم جميع الحقائق التى كلّف المرسلون الأوائل بتبليغها، وأنه إلى آخر الدهر مجمع العقائد والشرائع التى تكفل للناس الهدى والاستقامة، وأنه مصون من التزّيد والتحريف اللذين تعرضت لهما كتب أخرى ، وأنه يمكن القول الجازم بأن الوحى الآلهى للناس أجمعين ، فى القارات كلها قد استقر فى هذا الكتاب وحده .

ونجيء بعد ذلك إلى سنة محمد خاتم النبيين لنقول : إن ما تواتر منها واشتهر وصح جدير بالثقة ، وأنه امتداد للقرآن يمشى فى سناه ولا يزيغ عنه !! .

والواقع أن علماءنا الأقدمين وضعوا لقبول المرويات ضوابط يتأملها العقل العادى ، فيستريح إليها ، وقد قلت : إن هذه الضوابط لو عرضت على الماديين أنفسهم ما لا حظوا عليها مأخذا .

وما نستطيع أن نجد ضمانات أخرى فوق الضمانات التى اشترطوها لمنع الأخطاء عن النقول المروية . . .

ولا نقبل من أحد أن يقول : نرفض كل هذه المرويات لأن الوهم قد يتسرب إليها ، لأننا لا نقبل من أحد أن يقول : نرفض التاريخ كله لأن التاريخ يغلب أن يكتبه المنتصر ، ولا نقبل من أحد أن يقول : أرفض قراءة الصحف لأنها قد تروى الشائعات .

أقرأ وأنقد وأزن وأرجح وأبحث عن الحق ما استطعت وأتجرَّدْ من الهوى ، فهذا هو النهج ! .

وعلماؤنا الأقدمون مشوا فى هذا الطريق ، والأمة الإسلامية فى تاريخها الأول كانت أمة حقائق لا أوهام ، ولم تكن للخرافات أسواق رائجة كما يحدث الآن . . .

كان للفقه علماؤه ، وكان للحديث علماؤه ، وربما ذهل الآخرون فى شىء فيستدرك عليهم الأولون ، وقد يكون العكس ، وإن كان تاريخنا العلمى قد جعل الفقهاء أصحاب القيادة وجعل الجماهير تتبع مذاهبهم عن اجتهاد طورا وعن تقليد أغلب الأحيان . . .

والذى نلحظه آسفين أن كثيرًا من جامعى السنن قد تساهلوا فى قبول أسانيد ضعيفة ، وأن هذا التساهل زحم ميدان السنة بآثار ما كان ينبغى أن تذكر . .

وإذا كان من شرط الحديث الصحيح أن يخلو من الشذوذ والعلة القادحة فإن كثيرين نقلوا ما خالفوا به الثقات ، ونقلوا ما به علل تَرُدُّه ! ومع ذلك سطَّروا وحبّروا ، وتركوا للأخلاف ما عكر المجرى ، وبلبل الفكر .

إن رجلاً جليلاً كالبخارى ترك أحاديث كثيرة مرت به فلم يرها أهلا للتدوين ، ومن هنا لم يجمع فى صحيحه إلا ألفين وبضع مئات من السنن . .

على حين جمع غيره الآفا والآفا من الآثار تحتاج فى غربلتها ـ حسب مقاييس علمائنا ـ إلى جهد جهيد . .

ولأذكر مثالا واحدًا للبلاء الذى أصاب الجماعة الإسلامية من تسجيل الأحاديث الضعيفة وتركها تشغب على معالم الدين ، ومعاقده !

من تلاوتنا للقرآن الكريم نعى أن الله خلق لنا ما فى الأرض جميعًا ، ومكننا منه وملكنا إياه . .

ألسنا جزءًا من البشر الذين قال الله لهم .

﴿ . . . وسخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [1] .

---

(١) الآية ١٣ من سورة الجاثية .

وصاحب هذه الامكانات المتاحة مكّلف أن يتصرف فيها بما يرضى الله ، كما تصرّف سليمان فى نقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين ثم قال : ﴿ **هذا من فضل ربّى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ (١).

هل يقبل من أحد أن يستقبل من هذه الوظيفة ، ويحيا صفر اليدين ، ويفرّ من أعباء التكليف ، ويقول : أنا زاهد فى الدنيا . . . !! .

وما مستقبل الإيمان ودولته على ظهر الأرض إذا كان الأتباع جماهير غفيرة من أولئك المستقيلين الهاربين ؟؟ .

إن أعدادًا كبيرة من المسلمين زعموا أن صاحب الرسالة آثر الفقر على الغنى ، ودعا إلى قلة ذات اليد ، وبهذه الفلسفة الجبانة نشروا الفقر فى الأمة الإسلامية من عدة قرون ، وجعلوها لا تحسن إدارة مفتاح فى خزائن الأرض ! الأمر لا يستحق هذا العناء !! .

فلننظر : هل جاء فى سنة صاحب الرسالة تحقير للغنى وتأخير لأصحابه وذم لأنشطتهم؟ .

فى السنة الصحيحة لا يوجد شىء من ذلك ! بل الذى رواه البخارىُّ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلَّطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلِّمها » .

والأحاديث كثيرة فى توكيد هذه القاعدة الاجتماعية الرشيدة ، فالعالم الأول فى عصرنا يقوم على المال والعلم ، والعالم الثالث يقوم على الفقر ، والجهل البسيط أو المركب !! .

ومع ذلك فقد روى نقلة السنن عشرات الأحاديث تحت عنوان « الترغيب فى الفقر وقلة ذات اليد وما جاء فى فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين . . » .

وقد ساءنى فى إحدى المحاضرات أن المتحدث - هو من العلماء المرموقين عمر عبد الرحمن بن عوف ، ، ناقلا حديثًا نبويا يفيد أن عبد الرحمن - لكثرة مالِه لا يدخل الجنة إلا

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النمل .

حبوا – قلت له : هذه الأحاديث وأشباهها معلولة لا يجوز أن تروى ! .

وأنا وَفْقَ القواعـد القرآنية والنصوص القاطعة أرفض هـذا الحكم . . أليس يقول الله فى عبد الرحمن وأشباهه ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا** . . . ﴾ (١) .

وعبد الرحمن أسلم يوم كان المسلمون يُعَدُّون على أصـابع اليد . ومنذ أسلم سخر نفسه وماله لله ، فهل جريمته أنه صاحب مال سلطه الله على هلكته فى الحق ؟ أذلك الذى يؤخر مكانته ويضع درجته ؟ .

إن علماءنا قالوا بـوضوح فى علم الحديث : إذا خالف الثقة الأوثق فحـديثه شاذ ، فإذا كان المخـالف ليس ثقة فحـديثه منكر أو متروك ! لماذا لم نطبـق القواعد العلمية الموضـوعة المحترمة على هذا السبيل من المرويات التى ضارت مجتمعنا وأوهنت قواه . . ؟ .

لقد رأيـت الأمة الإسـلامية محكـومة بجملة مـن الأحاديـث المتروكة والمنكـرة والشاذة ! ورأيت هـذه الأحاديث تطرد أمـامها المتواتـر والمشهور والصحيح ! كما تطرد العملـة المزيفة العملة الصحيحة ! .

ولا أدرى كيف استطـاعت هذه الأحـاديث تنـويم حَمَلتِهَا . ولا أزال أعجـب كيف أن رجلاً من أساطين المحدثين كابن حجر يعترف بحديث الغرانيق وهو أكذوبة غليظة ، وإن كان يضعفه ، لكنه يرى له أصلا ، أى أصل غفر الله لك ؟ .

وكذلك فعـل مع حديث « أفعَمْيـاوَانِ أنتما ؟ » مع أن الروايات الصحيحـة فى البخارى ومسلـم تردّه ، وتجعله حديثًا لا وزن له . . . ورأيت ابن كثير يروى حديثًا أن سورة الأحزاب كانت فى طول سـورة البقرة (!) وأن النسخ عرض لأكثرها فبقى منها مـا بين أيدينا ! قلت أينـزل الله وحيـا فى نحـو ثـلاثين صفحـة ثـم يمحـو منـه ثـلاثـا وعشريـن أوأربعـا

---

(١) الآية : ١٠ من سورة الحديد .

وعشرين صفحة ويدع الباقى ؟ إذا لم يكن هـذا الكلام علـة تقدح فى الحديث فما تكون العلل القادحة ؟ هذا حديث لا يساوى المداد الذى كتب به .

والأحاديث الصحاح من رواية الآحاد تفيد العلم المظنون لا العلم المستيقن ، وقد اتفق علماؤنا على العمل بها فى فروع الشريعة .

ورأيت قلة من الظاهرية والحنابلة يرون العمل بالآحاد فى القضايا القطعية ، بيد أن هذا رأى مردود ، وعلى أية حال فعقـائدنا تعتمد على نصوص متواترة ، سواء كـان التواتر لفظيا أو معنويا .

والقدر الـذى لابد منـه من العبادات والأخـلاق والمسالـك المنجية عنـد الله مروى بهذا الطريق .

وأكثر ما وقع من خلاف هو فى أمور ثانوية ، الاجتهاد فيها من أهله مأجور خطأ كان أم صوابا ، ولا تهولنك وجهات النظر الكثيرة فى المذاهب الفقهيـة ، فإن الخصام فيها نوع من الجنون الذى يسود بين الدهماء ، ويجب أن يتنزه عنه أولو الألباب . .

ذلك ، ويرى أبو حنيفة أن « الفرض » ما ثبت بدليل قطعى لا شبهة فيه ، أما ما يثبت بدليل ظَنِّىّ كأحاديث الآحاد ، فإنه يكون دون الفرض . .

والأئمة الكبار يحسنون التنسيق بين أدلة الكتـاب والسنة ، وفى علـم أصول الفقه متسع لمن أراد الاستزادة ، وإنما ذكـرت هذا الكلام لأنـى فى ميدان الدعـوة الإسلامية وجـدت ما يستحق الشرح والتعليق ، عند الاستشهاد بشتى الأحاديث . .

إننى آبى كـل الإباء أن أربط مستقبل الإسـلام كله بحديث آحـاد مهما بلغت صحته ، كيف أجازف بعقائد ملّة شامخة الدعائم عندما أقول : لا يؤمن بها من لم يؤمن بهذا الحديث الوارد ؟ .

أقول ذلـك لأنى وجـدت فى تجاربى ، وفى قـراءاتى مـا يحتاج إلى إزالـة الريبـة وكشف الحق ، قال الباقـلانى يصف ما دار بينه وبين ملـك الروم من حوار حـول صحة الإسلام ،

«قال الملك : هذا الذى تدعونه معجزة لنبيكم فى انشقاق القمر ، كيف هو عندكم ؟ قلت : هو عندنا صحيح ! انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأى الناس ذلك ، وإنما رآه الحضور ، ومن صادف نظره إليه فى تلك الحال ! فقال الملك : وكيف لم يره جميع الناس؟ قلت : لأن الناس لم يكونوا على موعد وأهبة ليروا انشقاقه ! قال الملك : أبينكم وبين القمر نسب ،أو قرابة ؟ لأى شىء لم تر ذلك الروم وسائر الناس ؟ وإنما رأيتموه أنتم خاصة ! قلت : فهذه المائدة - التى أنزلها الله على عيسى - بينكم وبينها قرابة ؟ لماذا رأيتموها أنتم وحدكم دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد ، وخاصة يونان جيرانكم؟ فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن ، وأنتم رأيتموها دون غيركم ؟ » .

وقبل أن أذكـر رأيى فى هذا الجدال ، أذكر للقـراء أن صاحب إظهـار الحق تعرض لهذه القضية ، وردَّ على أتباع الكتاب المقـدس بأدلة أخرى أشد قوة وأكثر إقناعـا مما ذكره الشيخ الباقلانى . . .

وكأنه يقول لهم : إن اعتراضكـم على قصة الانشقاق يرتد اليكم فيهـدم مقررات عندكم لها مكانتها ، بل قد يحجب الثقة عن مراجعكم العتيدة ، ويجعلها مستحيلة الصدق ، وقد فصل كلامه فى سبعة وجوه [1] نجتزئ منها بوجهين اثنين :

الوجه الأول : تقـولون إن طوفان نـوح امتد سنة كاملـة ، فَنِىَ خلالها كل ذى حيـاة من الطيور والبهائم والحشرات والإنسان ، ما عدا أهل السفينة ، وما نجا من بنى الإنسان غير ثمانية أشخاص على ما هو مصرح به فى الباب السابع والثامن من سفر التكوين . .

وقد أيـد ذلك بطرس فى رسـائله الأولى والثانيـة ، وأكد أن العـالم القديم فنـى إلا ثمانى أنفس .

قال الشيخ رحمه الله : إن حادثـة الطوفان كما يذكر أهل الكتـاب مضت عليها ٤٢١٢

---

(١) لخصنا بأمانة ما ذكره المؤلف ، خشية التطويل ، ومن شاء رجع إلى الكتاب .

سنة شمسية ـ كتاب المؤلف ظهر منذ قرن تقريبًا ـ وهذه الحادثة العامة الطامة لا يعلم الهنود عنها شيئا ، قال ابن خلدون : اعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان ، ويقول بعض الفرس : إنه كان « ببابل فقط » ! .

والحق الذى نجزم به أن الطوفان وقع لقوم نوح وحدهم ، وأن أوربا وإفريقية والأمريكيتين وأكثر آسيا الكبرى لم يغمرها الطوفان ، ولماذا يحكم الله عليها بالغرق وهى لا تعرف نوحا ولم تسمع به ؟؟ .

وظاهر من التاريخ العبرى أن الطوفان وقع بعد عصر بناة الأهرام فى مصر ، والمصريون ما تعرضوا للطوفان ولا غرق من أرضهم شبر ! .

ومعنى ذلك أن ما ذكره سفر التكوين عن هلاك العالم القديم كله لا أصل له .

الوجه الثانى : جاء فى الباب العاشر من كتاب يوشع وفق الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ م مايلى : « ١٢ حينئذ تكلم يسوع أمام الرب فى اليوم الذى دفع « الأمورى » فى يدى بني إسرائيل وقال أمامهم : أيتها الشمس مقابل « جبعون » لا تتحركى » (!) والقمر مقابل قاع أيلون ١٣ فوقفت الشمس والقمر حتى انتقم الشعب من أعدائهم ، أليس هذا مكتوبا فى سفر الأبرار ، فوقفت الشمس فى كبد السماء ، ولم تكن تعجل إلى الغروب ، يومًا تامًا ؟ .

وفى الباب الرابع من الحصة الثالثة من كتاب تحقيق الدين الحق المطبوع سنة ١٨٤٦ م ص ٣٦٢ يقول : « أما غربت الشمس - أى تأخر غروبها - بدعاء يوشع إلى ٢٤ ساعة»؟ .

وتوَقُّف الشمس فى الفلك ، وعدم جنوحها إلى الغروب مدة يوم كامل كما يروون وقع قبل الميلاد سنة ١٤٥٠ .

مَنْ من أهل الأرض يذكر هذه الحادثة ؟ إن أحدا من كتَّاب التاريخ لم يشر إليها أو

يتحدث عنها ، وإذا كان عدم العلم العام بانشقاق القمر قادحًا فى صحة الرواية ، فالأمر كذلك فى توقف الشمس ليوشع ، بل إنّ توقف الشمس يومًا ، أو بعض يوم أوغل فى البعد وأجدر بالإنكار . .

ولأترك ما قاله صاحب إظهار الحق ولأعد إلى حوار الباقلانى مع ملك الروم ! إننى لو كنت مكان الرجل ، وسألنى هذا القيصر عن انشقاق القمر لقلت له كلاما آخر . . ! .

لقلت له : أيها الامبراطور الكبير إن سلفا عظيمًا سبقك فى حكم الرومان جاءه كتاب من رسولنا يقول له فيه « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » ثم يختم كتابه بقول الله تعالى « . . . **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون** » (١) .

أيها الامبراطور، إن نبينا عندما كاتب سلفك ، لم يذكر له خارقة من خوارق العادات التى عرضت له ، وإنما خاطب عقله ، واستثار أنبل ما فى نفسه ، وذكر له أنه باقٍ على إسلامه .

فإن رفض ملك الروم هذه الإجابة منى قلت له : إن شرحْتَ صدرًا بعقيدة التوحيد ، ورفضت من الناحية التاريخية انشقاق القمر وتوقف الشمس ، فأنت مسلم مقبول الإيمان .

ولا يصدنَّك عن دين الله خبر راوٍ من الرواة حفظ أم نسى واعلم أن من مفكرى المسلمين ومفسرى دينهم من اعتبر الانشقاق من أشراط الساعة ، وأن من المتكلمين من توقف فى أخبار الآحاد ، كما قال إبراهيم النظام : « إن القمر لا ينشق لابن مسعود وحده » وابن مسعود هو الذى رُوِىَ عنه الحديث المذكور . . .

ربما قال لى قائل : كيف تتهاون فى حديث صحيح على هذا النحو ؟ وأجيب إنّ ردّ

---

(١) الآية ٦٤ من سورة آل عمران .

حديث بالهوى المجرد مسلك لا يليق بعالم ، وقد ردّ أئمتنا الأولون أحاديث صحاحا لأنها خالفت ما هو أقوى منها عقلاً ونقلاً . . وبذلك فقدت مقومات صحتها ، ومضى الإسلام بمعالمه ودعائمه لا يوقفه شيء ! وقد قلت : إننى لا أربط مستقبل ديننا بحديث آحاد يفيد العلم المظنون ، وأزيد الموضوع بيانا فأقول :

إننى أومن بخوارق العادات ، وأصدق وقوعها من المسلم والكافر والبَر والفاجر ، وأعلم أن قانون السببية قد يحكمنا نحن البشر بيد أنه لا يحكم واضعه تبارك وتعالى . .

وعندما قرأت حديث الانشقاق شرعت أفكر بعمق فى موقف المشركين ، إنهم انصرفوا مكذبين إلى بيوتهم ورحالهم بعدما رأوا القمر فلقتين عن يمين الجبل وشماله ، قالوا : سحرنا محمد ، ومضوا آمنين سالمين لا عقاب ولا عتاب . . ! .

قلت : كيف هذا ؟ فى سورة الأنبياء يحكى الله سبحانه سرّ كفر المشركين بنبيهم محدِّدين مطلبهم منه ﴿ **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ [1] ويحكى القرآن لماذا لم يجابوا إلى مطلبهم ﴿**ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون** ﴾ [2] إن التكذيب بعد وقوع الخارق المطلوب يوجب هلاك المكذبين ! .

فكيف يترك هؤلاء المكيون بدون توبيخ ولا عقوبة بعد احتقارهم لانشقاق القمر ؟ .

ويؤكد القرآن الكريم هذا المنطق فى سورة الاسراء ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كَذّب بها الأولون** ﴾ [3] فإذا كان ارسال الآيات ممتنعا لتكذيب الأولين بها فكيف وقع الانشقاق؟ . .

بل كيف يقع أو يقع غيره والله يقول فى سورة الحجر﴿ **ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾ [4].

---

(١) الآية : ٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية : ٥٩ من سورة الإسراء .

(٤) الآية : ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .

ثم إن المشركين فى مواطن أخرى ألحُّوا فى طلب الخوارق الحسية ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . .** ﴾ [1] فلماذا لم يقُل لهم : سبق أن انشق لكم القمر فكذبتم ؟ أيمرّ هذا الحدث ليعقبه صمت تام ؟ . .

وفى سورة أخرى قيل للكافرين وهم ينشدون المعجزات الحسيّة : حسبكم القرآن فيه مقنع لمن نشد الحق ﴿ **وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله و إنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم . .** ﴾ [2].

إن مئات الآيات فى سور كثيرة طوال العهد المكى دارت فى إثبات الرسالة على محور واحد ، إيقاظ العقل وتعريفه بربه واعتبار صاحب هذا الوحى إمام السائرين إلى الله المعتصمين بحبله ، وتجاوزت مقترحات الكفار أن يروا آية مادية معجزة . .

من أجل ذلك لم أقف طويلاً عند حديث الانشقاق وأبيت بقوة أن أربط مستقبل الدعوة به أو بغيره من أحاديث الآحاد التى تصطدم بأدلة أقوى منها . .

ولست بدعا فى هذا المسلك ، فأبو حنيفة ومالك ردُّوا أحاديث من هذا الطراز عارضها من دلالات القرآن ما هو أقوى منها . .

إننا لا ننكر الخوارق من حيث هى ، وإنما نناقش الأسانيد التى جاءت بها ، ونوازن بين دليل ودليل ، و إيماننا بالخوارق هو الذى جعلنا نحن المسلمين نصدق بميلاد عيسى من غير أب ، فالقرآن قاطع فى هذه القضية و إذا ثبت قول الله فلا كلام لأحد . . ! .

والقاعدة أن خبر الواحد يُعمل به ما لم يكن هناك دليل أقوى منه فيصار إليه . .

ونحن فى ميدان الدعوة الإسلامية نواجه ماديين لا يؤمنون بشىء ، وكتابيين يؤمنون

---

(١) الآية : ١٠٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٥٠ ، ٥١ من سورة العنكبوت .

ببعض ما عندهــم ويكفرون ببعض ، ومسلمين زحزحهم الغزو الثقافى عن قـواعدهم فهم يتبعون كل ناعق . .

ومن ثم يجب أن تكـون الدعوة للأركـان المستيقَنة ، وأن يبتعد الدعـاة عما اختلفت فيه أنظـار المسلمين أنفسهم ، وفى القطعـىّ ما يغنـى عن الظنـىّ ، وفى الكتاب الكـريم ومـا اشتهر من السنن غُنْية عن الغرائب والآراء الاجتهادية . .

لقد راقبت الموضوعات والشواهد التى يعيـش كثير من الناس فى جوها فوجدت خليطًا مزعجـا من مـرويات نصفها واهٍ ، والنصـف الآخر لا يكـاد يفهم على وجـه الصحيح إلا نادرًا ، قلت : كيف تنجح دعايتنا للإسلام بهذا الأسلوب ؟ .

إنه على قـدر العناية بالثـانويات يقـل الاكتراث بالأصول ! ولا يجوز ربط ديننـا العظيم بأمور ما دارت فى خواطر الصحابة والتابعين وهم ينشرون الإسلام فى المشارق والمغارب . . .

وحتى لا يفهم البعض أننـى أنكر خوارق العادات ، أذكر أننى قـرأت فى الصحاح من كتب السنة قصصا تنضح بالصدق والخير ، عرضـتْ للنبى ﷺ وهو مع صحابته ، أعنى أنها وقعت بين قـوم مؤمنين لتـزيدهـم إيمانا ، وإذا نقلت إلى كـافريـن محتْ من نفـوسهم ظلماتٍ .

وفى دراستى للملل والنحل ، قرأت قصصا مشـابهة لها تمام الشبه فى بعض الأناجيل ! فعجبت لهذا الاتفاق ، وقبل أن أنقل ما رواه البخارى من تكريم الله لنبيه .

أقول : إن رسولنا ﷺ اختُصَّ من بين إخوته السابقين بمعجزة عقلية عامة دائمة ، أو حسب تعبيره صلوات الله عليه « أوتيت وحْيا يتلى » ثم شق طريق البلاغ وسط أنواء وأعباء تهدّ الكواهل الشداد ، ولكنه وفق السنن المعتادة أدى الأمانة ونجح كما لم ينجح أحد . .

وفى أثناء ذلك قد يجوع وهو يواجه أزمـة ، أو يرهقه حصار ! وقد يُجْرَح ويُهزم فى إحدى مراحـل الجهاد ، أو قد يتبعه الـرعاع بالحجارة يـُدمون قدمه وهـو عائد من محاولة ضـائعة الثمرة .

وهو مع وثاقة الإيمان يهتف بربه : « إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالى ! .

مَنْ أوْلى بأن تخرق له العادات أحيانا من هذا الرسول ؟ فانظر بعض ما يُروى من ذلك .

روى البخارى عن اسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة : أنه سمع أنس بن مالك يقول :

قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شىء ؟ .

قالت : نعم فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارًا لها فلفّت الخبز ببعضه ، ثم دسته تحت يدى ، ولا ثتنى ببعضه ، ثم أرسلتنى إلى رسول الله قال :

فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺفى المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال لى رسول الله ﷺ :

أأرسلت أبو طلحة ؟ .

فقلت : نعم .

قال : بطعام ؟ .

قلت : نعم ، ويظهر أن رسول الله أبى أن يأخذ ما أرسل إليه من طعام وقرر شيئًا آخر جاء فى بقية الحديث .

فقال رسول الله ﷺ لمن معه قوموا ، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته .

فقال أبو طلحة : يا أم سليم ، قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم! . فقالت : الله ورسوله أعلم .

فانطلق أبو طلحة حتى لقى رسول الله ﷺ ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله .

هلمّ يا أم سليم ما عندك ، فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله ﷺ ففُتَّ ، وعصرت

أم سليم عكة فأدمته ، ثم قال رسول الله فيه ما شاء الله أن يقول ، ثم قال :

ائذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا .

ثم قال :

ائذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا .

ثم قال :

ائذن لعشرة ، فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا .

ثم قال :

ائذن لعشرة ، فأكل القوم كلهم حتى شبعوا .

والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً ؟ .

ونترك هذه الصورة العجيبة ، ونقلب فى كتاب التاريخ ،لننظر صورة أخرى مشابهة وقعت لنبى الله عيسى بن مريم ، وهو من المرسلين أولى العزم ، وقد كافح فى سبيل الله وتحمّل من اليهود بلاء شديدًا .

وقد كان مع عيسى حواريون آمنوا وثبتوا معه ، وشاء أن يريهم آية من آياته التى بها نبيه عيسى نقلها من كتاب « متى » لما فيها من شبه بما وقع لنبينا عليه الصلاة والسلام .

(١٤) فلما خرج يسوع أبصر جمعا كثيرًا ، فتحنّن عليهم وشفى مرضاهم .

(١٥) ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين :

الموضع خلاء ، والوقت قد مضى ، (١٦) اصرف الجموع يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعامًا ، فقال لهم يسوع :

لا حاجة لهم أن يمضوا ، أعطوهم أنتم ليأكلوا (١٧) .

فقالوا له : ليس عندنا ها هنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان (١٨) .

فقال ائتونى بها إلى هنا (١٩) فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ، ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر وأعطى الأرغفة للتلاميذ ، والتلاميذ للجموع (٢٠) فأكل الجميع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنتى عشرة قفة مملوءة (٢١) والآكلون كانوا نحو خمسة الآف رجل ، ما عدا النساء والأولاد .

ونلفت الأنظار إلى أن تلك الخوارق لم تقع بين كفار يجحدون ، وإنما وقعت بين مؤمنين استقر فى صدورهم اليقين . وهنا قد يسأل سائل : ألم يكن الكفار أولى برؤية هذه الخوارق ليؤمنوا ؟ ونجيب بأن الذين كفروا من قبل قد قست قلوبهم واستغلقت عقولهم فهم لن يتغيروا برؤية المعجزات التى يظهرها الله على أيدى رسله ، وإذا رأوها فسيقولون : سحر ، أو شعوذة ، أو أى شىء آخر .

ولعل ذلك هو السر فيما رواه متّى عن عيسى عليه السلام لما طُلبت منه اية : « جيل شرير فاسق يلتمس آية ، ولا تعطى له آية إلا آية يونان « يونس » النبى ، وتركهم ومضى» .

وقد أكد مرقس هذا المعنى [٨ : ١١ - ١٢] فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكى يجربوه ، فتنهد بروحه وقال : لماذا يطلب هذا الجيل آية ! الحق أقول لكم : لن يعطى هذا الجيل آية . . » .

وفى الأجيال المتعصبة المستكبرة على الحق يقول الله تعالى :

﴿ **إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ (١) .

إن عالم المرويات ممدود الأرجاء ، وما نحب أن يشتغل كل الناس بالتجوال فيه ، فإن ذلك لا يصلح له إلا رجل يجمع بين أمرين : الأول معرفة المقبول من المردود ، الثانى معرفة الصحيح على وجهه المراد . فقد رأيت ناسا يروون الحديث الصحيح بيد أن معناه فى عقولهم باطل ! وقد أصاب الإسلام من هؤلاء ضرٌ شديد ! .

بل إن فسادًا واسعًا وقع فى عالم الاقتصاد ، وفى فقه العلاقات الدولية ، وفى العلاقات بين الجنسين ، وفى بيان أصول الحكم بسبب العوج فى الفهم . أو القصور فى الفقه اللذين يصيبان مشتغلين بالمرويات .

والواجب أن تزداد عناية المسلمين بفقه الكتاب ، فإن النكبة فى هذا الفقه لا يُداويها الاستبحار فى السنن ، كما أنه لابد من ذَوْدِ العقول الكليلة عن العبث بما يقع بين يديها من مرويات ، فهى تسيىء أكثر مما تحسن

---

(١) الآية : ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

أمـةّ بخيـر يـجبُ أنْ تـُؤدى رسـالتهـا

بعد النـومة الطويلـة أو الاغماءة الطويلـة التى أصابـت المسلمين فى الأعصار الأخيرة ، جاءت يقظـة مرجوة الخير ، وشرع العـامة والخاصة يمسحـون عيونهم ويحركون أعضـاءهم ويعملون على استئناف المشوار العتيد ! .

ونظرت إلى أمتى تـرمق المستقبل بأمل ، وتنشـط كى تتقدم وتزاحـم وتسبق ، ولكنها لا تتقدم خطوة حتى تحاصرها العقبات ، وتقفها المتاعـب ! والمحزن أن هذه المتاعب من عند نفسها أكثر مما هى كيدُ العدو وسعيه لهزيمتها . . ! .

لقد شعرت بأن أمتنا نسيت رسالتها ، أو جهلت هـذه الرسالة من زمان بعيد ، إن هذه الرسالة من وضع الله لنا لا من مزاعمنا لأنفسنا ، أو دعاوانا لجنسنا . . ! .

والأمة التـى لا تعرف لها هدفـا قد تتحـرك فى موضعها ، أو تتحـرك فى اتجاه مضاد ، أو تصيب نفسها وهى تريد إصابة غيرها ، إن الطيش يحكمها لا الرشد ! .

وقد حدد القرآن الكريم رسالتنا فى هذا العالم فقال : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمـرون بالمعـروف وينهون عـن المنكر**﴾ [1] أهـى دعـوة نظـريـة إلى الخير فى الملصقـات والكتيّبات والنشرات العـامة ؟؟ لا ، يجب أن تقدم الأمة مـن نفسها نموذجا حيـا أو أسوة حسنة لما تدعو إليه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا فى الله حق جهاده . .** ﴾ [2].

---

(١) الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ٧٧ [illegible]

إن عمل الخير والدعوة إلى الخير ، سمات الأمة الظاهرة ، وملكاتها الباطنة ، ووظيفتها الدائمة ، وشهرتها التى تملأ الآفاق ، وإجابتها عندما تُسأل عن منهجها وغايتها ﴿ **وقيل للذين اتقوا : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيرًا** ﴾ ! [1] .

وما يُنتظر من أمة تحمل رسالة السماء وتتبنى دعوة الحق إلا أن تكون حارسة للشرف ، مترفعة على الدنايا ، متواصية بالمرحمة ، منظورًا إليها محليا وعالميا بأنها سند المظلوم وجار المستضعف ، ويجب أن تكون قديرة على ذلك وسمحة به ! ! .

وقد بين الله أن الأنبياء - وكذلك أتباعهم - ليسوا باعة كلام ولا أدْعياء فضل بل هم كما شرح فى كتابه ﴿ **وأوحينا إليهم فِعْل الخيرات وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾ [2] .

فهل تولت أمتنا هذا المنصب ؟ أو هل تأهلت له بفقهها ومسلكها ؟ أم زاحمت غيرها على طلب المتاع والتعلق بالدنيا ؟ الذى يبدو لى أن المسلمين شعوبا وحكومات - هبطوا دون المستوى المنشود ، بل هبطوا دون مستوى غيرهم ممن لم يشرفهم وحى ، ويكلَّفوا بحمل رسالة ! .

والمرء قد يمشى الهوينى غير آبه لما أمامه إذا كان كان خالى البال لا يشغله واجب محدد ، أما إذا كان فى سباق مهمّ ومع أنداد قادرين أو خصوم قاهرين فإنه يحثّ الخطى ويجمع العزم ويتجاوز العقبات . .

والمسلمون منذ بدأوا تاريخهم ما صفا لهم الجو ، ولا خلا لهم الطريق . . ! فكل استرخاء أو تخاذل سيستغله شياطين الإنس والجن للنيل من الحق وتركه فى المؤخرة والانفراد دونه بالصدارة . .

---

(١) الآية : ٣٠ من سورة النحل .

(٢) الآية : ٧٣ من سورة الأنبياء .

وهذا ما وقع فنحـن المسلمين الآن فى العالم الثالث على حين أمسك بزمام الحضارة من ينكرون الألوهية أو من يتخيلونها « عائلة مقدسه » . .

وهم لم يعوقونا عن الانطلاق فى أغلب مراحل تخلفنا ، بل نحن الذين فرطنا وتكاسلنا . وتركنا المجال فسيحا أمام غيرنا فملأه لما أخليناه .

إن عناوين الخير والمعروف – وهـى معالم رسالتنا – لم نسندها حقائق قـاتمة ، فكانت النتيجة أن تـلاشى صدى هـذه الكلمات النبيلة ، فاختفـى وقعها من نفـوس السامعين ، وظنـت أمم كثيرة أن المسلمين طـلاب شهوات أو قطـاع طرق ، وأنهم يـوم يملكون القـوة يسخرونها لإعلاء جنس ، وتحقيـق أمجاد وطنية أو قومية ، وهذا كله إفـك ! بيد أن المسئول عن انتشـار شائعاتـه أصدقاء جهلة أو عجـزة ، كما يحمل المسئوليـة أيضا أعداء مُرجفون مرُيبون .

تدبرت هذه الآية ﴿ **قل : إنما أنذركم بالوحى**﴾ [1] والآية الأخرى ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهـم به جهادًا كبيرًا** ﴾ [2] فرأيـت أن صاحـب الرسـالة لا يفتـح العقول بسكين إنما يفتحها بكلمات اللـه المنيرة التى تنزلـت عليه ، وأنه منهىّ عـن طاعة الكـافرين مـأمور أن يجاهد بهذا القرآن من تنكروا له واعترضوا سيره . . .

وأعلم بدراستـى وتجربتى معا أن هناك مستكبريـن يستبيحون غيرهم ويجتاحـون حقوقه المادية والأدبية ، وأن الاستسلام لهؤلاء وضاعة ، وترك الحقيقة تداس تحت أقدامهم جريمة ! إن هؤلاء لابد من مقاومتهم وحشد أهل اليقين لحسم شرهم ! .

فى هؤلاء يقول اللـه لنبيه : ﴿ **فقاتل فى سبيل اللـه لا تُكَلَّفُ إلا نفسك وحرِّض المؤمنين عسى الله أن يكفَّ بأس الذين كفروا ، والله أشد بأسا وأشد تنكيلاً**﴾ [3] .

---

(١) الآية : ٤٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٥٢ من سورة الفرقان .

(٣) الآية : ٨٤ من سورة النسـاء .

تدبـّر هذا السيـاق ، وكيف أبرز عـدوان المعتدون ، وكيف يستعـان باللـه على كفكفة شرهم ، وكسر بأسهم ! إن المؤمنين يلقـون هجومًا فلا يجوز لهم أن يفروا أمامـه ! ومن أجل الله وفى سبيل الله يتحملون أعباء هذا التصدِّى .

إننا لم نبدأ عدوانا ، لقد أنذرنا بالوحى ، وجاهدنا بالكلمة ، وشرحنا بغيتنا وهى تحقيق الخير والمعروف فى الدنيا ، وتحويـل الأرض - حيث قدرنا - إلى ساحات عبـادة لله وتراحم بين عباده لا يدع فى المجتمع جائعًا ولا عاريًا ولا محرومًا ولا محقورًا . . .

تلك أهداف أمتنا كما رسمها القرآن الكريم﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾ [1] .

لكن المأسـاة الكبرى أن هذا الهدف نسيه مـن فيه ، ولم يشغل نفسـه ولا قومه بـالإعداد العلمى الواسع له ، ولم يكلف نفسه محو الشبهات التى أثيرت عمدا حول مقاصده .

فمضت الأمة فى طـريق ملىء بالغيوم ، وأخـذت تقاتل دون أن يكون بين يـديها عَرْضٌ جيد للحق ، وتطبيق أجود لمبادئه ، وكنت أقرأ وأنا طالب أن علاقتنا بغيرنا هى الإسلام أو الجزية أو الحرب !!!! .

إن الذى أرسـل هذا الكـلام على عواهنـه نسىَ الـوظيفة الأولى لـلأمة ، وهـى الدعـوة السليمة و إرسال أشعة كاشفة عما تريده للعالم من رشد وسعادة . .

قد يـدهش امـرؤ لهذا القول و يردّ على عجـل : كان آبـاؤُنا يَدْعـون إلى عقيدة التـوحيد و يستندون فى جدالهم عنها إلى مواريثهم من كتاب وسنة ، فلا عذر لأحد .

ونمضى نحن فى توضيح مـا نعنى ! إن عقيدة التوحيد جذع شجرة باسقـة مزهرة مثمرة لها سبعون غصنا ، أو سبعـون شعبة يلتمس الناس تحتها الظل والجنـى ، لماذا جعلنا هذه

---

(١) الآية : ٤١ من سورة الحـج .

العقيدة خشبة جرداء لا تغـرى أحدًا أن يأوى اليها ؟ لماذا ترك المجال مفتـوحًا أمام الأعداء يزعمـون أنها شجرة شـوك لا زهر فيهـا ولا ثمر ؟ .

إن الخاصة الأولى للأمة الخاتمة أنها غيورة على الحقيقـة ، لا تطيق تشويهها ولا إغفالها ، ومن ثم فهى لا تسكت عن أمر بمعروف أو النهى عن منكر فإذا بُليت هذه الأمة بسلطات تكمم الأفواه ، وتـدع العامة والخاصة لا يعرفون معـروفًا ولا ينكرون منكرًا فهل هـى بذلك الصمت الجبان تبلغ رسالة الله ؟ أم هى تقطع الطريق إليها . .

لقد أخـذ الأحرار على ملك فرنسـا لويس الـرابع عشر أنه قـال : أنا الدولة ! يعنـى أنه وحده المسئول عن شئونها لا شريك له .

فإذا كـان « السلطان » فى بـلاد الإسلام يردد بلسـان الحال أو المقال هـذه الكلمة ، فما الفرق بين دولة الإيمان ودولـة الكفر ، وأين يجد الناس سـاحة المساءلة والشـورى ، والأخذ والرد دون تهيّب ولا توجُّس ؟؟ .

إن العقيدة الإسـلامية أساس حضـارة راشدة راقيـة ولا يسوغ أن يتدرَّع بها مـن يخدمون مآربهم وأغراضهم ، ونحـن مكلفون بتبليغ رسالة نازلة مـن السماء لا حمل أوضاع من صنع الناس .

أعرف ويعـرف غيرى أن الإمامة العظمى فى الإسـلام احتكرتها ثلاث أسر خـلال اثنتى عشر قرنا ، أفلمصلحـة الإسلام وعلى هدى تعاليمـه تم هذا ؟ قد نقـول : إن هذا الخطأ لم يؤثر على حقيقة الدين أو على مساره ، وهذه إجابة تتطلب وقفة طويلة وشرحا مستفيضا ، لا سيما أن ركام الأخطاء الذى آل إلينا على مر القـرون جعل المسلمين المعاصرين يضطربون فى الفهم والمنهج ، بل جعلهم يظنون أن الحكم من نوازل القدر التى لا تُردُّ ، وأن استقباله كاستقبال الآفات والمصائب الوافدة يكون بالصبر والاسترجاع ! .

وقد أورثتهم هـذه الجبرية الخرافية استسلاما واستكانـة لضروب الحكم الاستبدادى قلّما يعرفان فى جنس آخر . . . ! .

إن الدولــة صاحبة الـرسالة تكـرس قواها المادية والأدبية فى الداخـل والخارج لإنجاح رسـالتها وشرح حقـائقها على نحـو رائق جذاب ، وليـس يجديها زخرف القـول إذا كانـت صـورتها الداخليـة دميمـة ، إذ الناس بعـد التروى والتأمـل يعـولون على الموضـوع لا على الشكل . .

والوظيفة الأولى لدولـة الإسلام أن تُرى الأمم الأخرى آفاق الخير الذى تـدعو إليه مشرقة فى حيـاتها هى ! فى أخـلاقها وتقـاليـدها وعبـاداتها ومعـاملاتها وآدابها وفنـونها وملاهيهـا وأسواقها وقراها ومدنها ، أى فى جميع أنشطتها التى تكشف عن أعمالها وآمالها . .

إننا - بـاسم الإسـلام - ندعو إلى الخير ونفعلـه ، فما وزن هذه الدعـوى العريضـة وما آثارها؟ .

إننى اقرر مطمئنا أننا لم نحسن تبصير الجماهير الهائمة فى شتى القارات ، وليست لدينا أجهزة قديمة قائمة من قرون على البلاغ المبين ، والذين اختطفوا مناصب الإمامة العامة حقبا مديدة كانوا أنزل رتبة من أن ينهضوا بهذا العبء ! .

إنهم لم يكونوا عالمين ، ولم يكن للراسخين فى العلم مكـانة لديهم . . وقد حسب لفيف من العرب أن الإسلام ثـروة قومية يمكن أن ينتفع بها الجنس العربـى - كثروة النفط مثلاً - فتركـوا الإسلام يتمـدَّدُ بقواه الـذاتية وبـالجهـود الشعبية ، وانشغلـوا هم بمـراسم الحكـم ومطالبه . .

فلما وقعت الخلافة فى يد الأتـراك بدأوا بداية حسنة فى خدمة الإسـلام ثم انتقلت اليهم علل الخلافة العربية فضاعوا وأضاعوا . .

وطلع علينـا هذا العصر الكئيـب ، فإذا رايـات الإسلام تُطـوى علانيـة تحت شعارات العروبة التى تعـدّ محمدا بطلاً قوميًا (!) وأمام زحف الملل والفلسفـات الأخرى التى خلا الجو لها فباضت وأفرخت . .

تلـك خسائر فـادحة نـزلت بـأمتنا ورسـالتنا ، والعـلاج أن نعرف : مـن نحن ؟ ومـا

رسالتنا؟ وكيف نـؤديها ؟ وكيف نتخلص من أخطـائنا ؟ وكيف نستفيـد من تجارب النصر والهزيمة ، والمدّ والجزر . . .

ولنعلم أن عباد الله فى المشارق والمغارب ليسوا مستعـدين أن يتبعوا قيصرًا جديدًا يلبس عباءة الإسلام ، وأن علماء الدين الذين يشغبون على الشورى ليسوا علماء ولا متدينين ، إنما هم قَذًى تجب تنحيته عن الطريق . . .

وأعرف أن الاستبداد السياسى عاد إلى المجتمعـات من الباب الخلفى فى شكل تنظيمات دستوريـة مزوَّرة ! والحقيقـة لا تخفى وراء هـذه الألبسة الخادعـة مهما تراكـم حولها ذبـاب المنتفعين والمنافقين . . .

الإسلام وأمتـه أكبر من هـذه المظاهر ! ولـن يصدّق الناس أننـا رجال أحـرار ، ننحنى وحسب أمام الواحد القهار ، ما بقيتْ صفوفنـا يتقدمها قزم تغضى أمامه العيون ، وتخرس الألسنة لأمرٍ مَّا . . . ! .

وفى عصرنا هـذا تتودّد المذاهب الأرضيّة إلى النـاس بكفالة ضروراتهم البدنيـة ، وإشباع نهمتهم منهـا ! والإنسان بطبيعته يكره ذل الحاجـة ، ويضيق بكبت لا نهاية لـه ، ويتعلق بأى نظام ييسر له الضرورات ، ويعده أو ييسر له بعض المرفهات . . .

هل تجهَّم الإسلام لهذه الطبيعة البشرية ؟ إن إيـراد السؤال على هذا النحو خطأ ! هل لم يسارع الإسلام إلى كفالة هذه الحقوق البشرية ؟ .

فى صدر حيـاتى ألفـت بضعة كتب شرحـتْ تلك القضية ، كنـا - أنا وسيـد قطب ، ومصطفـى السبـاعـى - نـذود الجماهير المتطلعـة عـن اعتنـاق الشيـوعيـة ، لأن بـريقهـا استهواهم، فقدّمنا البديل من تعاليم الإسلام . .

وإنما استهـوى الناس هـذا البريـق لأن فوضـى التملك مـن حـرام تسرّبت إلى أغلـب الأموال، ولأن تبلّـد المشاعر بـإزاء الآم المحرومين قطع أوصـال المجتمع ، وبعثر فى أكنـافه بذور الحقد ! .

وكثير من المشتغلين بالثقافة الإسلامية يحسبون أن الإسلام بعدما قضى على الأصنام فى الجزيرة العربية قد أدّى الرسالة وبلّغ الأمانة وليعشْ الناس حسب ما يرغبون من الناحيتين الاقتصادية والسياسية ففى الأمر متسع وليكن ما يكون . . !! .

وهذا الجهل الفاضح أثقل الأفكار والأقدام ، وأحكم حولها القيود فكانت العاقبة أن وثب العالم إلى الأمام بخطوات فِساح ، وضبط شئون الحكم والمال وفق ما يرى مصلحته ، أما المسلمون فوقفوا أو تخلفوا ، ومن أراد بهم خيرا حاول إلحاقهم بقطار الشرق أو الغرب ، لأنه لا يعرف حقيقة الدين من رجال قاصرين ، ومن هنا توجّب على الحكومة الإسلامية أن ترقب سير المال فى الحياة العامة ، وأن تدرك خطورة انحرافه أو طغيانه على العقائد والأخلاق . .

ولا أجد أى حرج فى اقتباس ما استحدثه البشر من أنظمة ووسائل حماية الفرد من طغيان الاستبداد أو رأس المال . .

والواقع أن العصور الحديثة لها اجتهاد مثمر ناجح فى تنظيم الشورى ، وفى إدارة الأعمال ، وفى حماية الفقراء والكادحين . . .

ونقل هذه الوسائل إلى بلاد الإسلام ليس بدعة ضلالة كما يزعم المتدينون الجهال ، بل تكاد تكون واجبا حتما بعد عهود التخلّف والضياع التى رانت علينا . .

ومن السفه استبقاء الشورى فى طورها الساذج أيام سقيفة بنى ساعدة واستبقاء العطاء يدا تدفع ويدًا تأخذ وحسب ! .

إن العمران البشرى اتسعت دائرته وتعقدت أحواله ، وعلينا مواجهة ما جدَّ بأقضية ذكية مجدية ، وما فكرنا يومًا فى تعطيل نص ، أو الشذوذ عن قاعدة ، وإنما سعينا إلى تجاوز عصور الانحطاط والهزيمة التى طال ليلها ، مستندين إلى مواريثنا المحفوظة وحدها . . .

ومن واجب الدولة ضبط العلاقات بين الجنسين داخل إطارها الصحيح ، فإن ذوى

الفطر السليمة ضاقوا بالتبرج الجاهلى الذى يصحب الحضارة الحديثة ، وما انتهى إليه من انحدار وتهتك . .

وقد قلنا : إن العجز الفكرى والنفسى عند لفيف من المتدينين من وراء هذا التطرف الحيوانى الكاسح ! فهم لا يفهمون المرأة إلا وسيلة متعة خاصة ، وينكرون عليها إنضاج ملكاتها الروحية والعلمية ، ولا يعون أن لها أى حصة فى ميادين التربية وآفاق المجتمع ، وخدمة الدين والدولة . .

وقد أعيانى الحديث مع شباب يوجب تغطية وجه المرأة ويديها ويحرّم عليها الجُمَع والجماعات ، ويذهب إلى جملة من المرويات الشاذة أو المنكرة كى ينزل الدين على رأيه ! قلت لهم : إن عملكم هذا سيجعل النهضة النسائية تزيغ عن الدين ، وتلهث وراء الغرب .

وعندما تقولون : لابد من ضرب النقاب على الوجه فسوف يسحب النساء الخمار عن الرءوس ، وعندما تقولون : لا بد من تخبئة الأيدى داخل قفاز فسوف تتعرّى السواعد والأيدى جميعًا ، إن الغلّو يستتبع الغلوّ ، إنكم تكذبون على الإسلام من جانب وهنّ يكذبن على الإسلام من جانب آخر ، وكلاكما شر من صاحبه ! .

وأرى أن تدخل الدولة فى موضوع الزواج ، وتكوين الأسر ، فإن النفاق الاجتماعى وتقاليد الرياء جعلا من عقد الزواج شيئًا يقصم الظهور ، ويستدعى التريث والإرجاء ، وإلى أن يتم بعد لأى يقع فى صمت وخفاء ما يندى له الجبين ، وما لا يقبله دين !! .

وَثَمَّ أمر جدير بالإبراز والإثارة ! إن السياسة الفاسدة تبقى وتنمو فى جو الثقافة الفاسدة ، وهى إذا لم تجدها سعت لخلقها واحتضان رجالها . .

وأرى أن كثيرًا من المعارف المسمومة ، والفتاوى الكاذبة ، والأحكام الطفيلية ، قد عاشت وغلظت فى حضانة الحكم الفردى والاستبداد السياسى ، وقد لاحظت أن جماهير

المسلمين خلال عدة قرون احتبست فى مجادلات لا تساوى قلامة ظفر ، وهاجمت أعصابها فى خلافات محمومة لا طائل تحتها . . .

وذلك فى وقت كانت رقعة الإسلام تنكمش ، وأعداؤه يشتدون وشئونه العظمى يبتّ فيها التافهون . . .

إننى شعرت بأن هذا مراد ، وإذا لم يكن مخططا فقد تم لمصلحة الطاغين الذين يعينهم أن تنشغل الأمم عنهم وعن مباذلهم .

وفى عصرنا هذا تقوم شتى الفنون ، والألعاب الرياضية بما يشبه هذا الدور . .

ولا أدرى لماذا تهتاج أمة لهزيمة رياضية ولا تهتز لها شعرة لهزائمها الحضارية والصناعية والاجتماعية ؟؟ .

والحكم الإسلامى فى قرون خلت لم يرتفع إلى مستوى الإسلام نفسه ، فلا عجب إذا فشل فى تبليغ رسالته وفى الدفاع عنه عندما تَعرِض له الأزمات . .

وقد رأينا الخلافة العباسية فى الزحف الصليبى الأول ، لقد عجزت عن حشد طاقات الأمة بل عن جمع صفوفها ، فإذا الحملات القادمة من الغرب تعوم فى دمائنا ، لا يردها رادّ! وبقيت الخلافة الواهنة تترنّح حتى ماتت تحت أقدام التتار المتعاونين مع الصليبية فى السرّ والمسلمون لا يدرون ! .

وتكررت المأساة نفسها مع الخلافة العثمانية ، حَذوك النعل بالنعل ! ونجح الاستعمار الصليبى الثانى فى نبذ الخلافة العظمى (!) والخليفة المسكين ، نبذ النواة .

ودفعت جماهير المسلمين من دمها ومن كرامتها ثمن فساد السياسة والثقافة فى عالمنا الإسلامى المريض ! .

وقد تحدثتُ عن هذا التاريخ بشىء من التفصيل فى كتابى « الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر » وما كررت الإشارة إليه هنا إلا لأنى رأيت أناسا يعملون فى الحقل الإسلامى لا يعلمون معاقد الدين ، ولا غاياته العظمى ، وهم يجتهدون فى استحياء العلل

القديمة ، يحسبونها أسباب نهضة وما دروْا أنها أسباب البوار . . !! .

إن الدولة الأمينـة على الرسالة الإسلاميـة عليها واجبات ثقيلة نحو الأمـة التى تقوم على شئونها ، ونحو الأجيال الناشئة التى تقوم على تربيتها يمكن إجمالها فى النقط الآتية :

(ا) تجديـد علـوم الديـن ، وتبصير طـلابـه بـالحقـائق الرئيسيـة ، وتجاوز القضـايـا والخلافات التى خلقها الفراغ والترف فى بعض الأزمنة ، وبيان ما هو قطعى وما هو ظنى ، ومـا هو أصلىّ ومـا هـو فرعـىّ ، وتنـاول المذاهب المختلفـة على أنها وجهـات نظر ليسـت معصومة من الخطأ . .

إن تدريـس الديـن الآن بحاجـة إلى إعادة نظر ! فهنـاك معلومـات تقدم للكبـار فقط تشحن بها عقول الصغار ، وهناك آراء للرجال تقدّم على أنها وحى معصوم أو نص ثابت ! وهناك أركان للأخلاق والسلوك تراجعتْ لتحل محلها صور فقهية ثانوية ! .

(ب) إن العناية بالتربية تتطلب محو الخصومة القائمة بين الفقهاء والصوفية على أساس تجريد التصوف من البدع والخرفات التى التصقـت به ، وردِّه إلى كتاب الله وسنة رسوله ردًّا يدرِّب الناس على مقام الإحسان ، أعنى مراقبة الله ومشاهدته . .

إن الإنسان لا يرقـى أبدًا بعقله وحده ، فكم مـن ذكى العقل غزير العلـم تراه خبيثا لا تؤمن أطماعه ، وكم من منافق عليم اللسان .

وأعرف أن عددا من المنتمين إلى التصوف دعىٌّ لا ضمير لـه ، غير أ ن هذا لا يزهدنا فى تعهد القلوب بما فى هذا العلم من حِكَمٍ ثمينة ، وتجارب رقيقة . . .

ولست أحب أن ينفصل العلم عن التربية الـروحية ، ولا أن تنفصل التربية الروحية عن العلم فلا قيمة لأحدهما دون الآخر .

(جـ) جماهير المسلمين فقيرة إلى تدريب مستمر على الشئون المدنية ، وهى بحاجة ملحة إلى مهارات كثيرة فى ميادين الحياة العملية ، وتخلّفُهـا فى هذا المضمار يهزم الإسلام وينال من قدرته على قيادة الناس .

وإنــه ليحزننــى أن يكون المسلــم – لغير سبب واضــح – أقل مــن غيره إجادة للحــرف المختلفة .

والحقُّ أن مــا نراه الآن هــو أثر التــديّن المغشــوش الذى سيطــر على المسلمين حينا مــن الدهر، وجعل فهمهم قاصرا للدين والدنيا معا .

(د) أرى تنظيم فرق للفتــوّة ، أو بتعبير العصر فرق للكشافة والجوالة ، إن الــرياضة البدنية تصنع الأجسام والنفوس صناعة حسنة ، وتنشئ مشاركات اجتماعية طيبة .

والاهتمام بالرياضة لا يكون بإقامة بعض الأندية المتخصصة فى لعبة كذا أو كذا . . ربما أفاد ذلك بعض المنتمين لهذه الأندية ، على حين تتحول الجماهير إلى طوائف من المشجعين العاطلين . . !! .

وقد راقبت الفرق العــربية التى تذهب للمباريــات العالمية فوجدت أغلبها يعــود فاشلا صفر اليديــن من أقل الجوائز . . أما الــدول العظمى فتظفر بأغلى الجوائز ، وتكسر أرقــامًا قياسية كما يقولون ، فأدركت أننا متعبون جسمانيا وروحانيا على سواء ! .

وعلاج ذلك العجز يبدأ من تصحيح القاعدة الشعبية نفسها .

فقد تقــول : ثم مــاذا ؟ بعد أن تنشــأ للإســلام أمة قــوية الــروح والجسد قــوية العقــل والعاطفة .

أجيب : لن تكون لهذه الأمة مطامع جنسية أو مــادية ، ولن تزعم أن الدم الآرى أفضل من الدم السامى ، أو أن أولاد يعقوب أشرف من أولاد اسماعيل .

إن رسالتها أن تكون مع المظلوم حتى ينتصف ، ومع المحروم حتى يستغنى ، ولن تكون لها قداسة إذا أهانت الحق ، أو استوحش الحق فى جنباتها .

رســالة الأمــة – كما شرحهــا كتابها ــ فعــل الخير والدعــوة إليــه ، عمل المعـــروف ومحو المنـكر! .

ومعنى الخير مركوز فى فطرة البشر وقد يضبطه الوحى الإلهى ويزيل ما يشوبه من لبس ،

وكذلك معنى المعروف ، فإن العقل والنقل يتطابقان غالبا على إبرازه ودعمه . .

و إيراد رسالة الأمة تحت هذا العنوان مقصود حتى يعرف القاصي والداني ما هي وجهتها وما هي شرعتها ؟ .

وعندما نقوم وفق معالم أسلافنا فستكون تلك صبغتنا فى المجتمع الدولى ، وقد نسفك دماء أبنائنا لنحرر الزنوج فى جنوب إفريقية لا لشيء إلا لإرضاء الله و إقرار الحق !! .

إن أسلافنا الأوائل عندما قاتلوا قديما كانت تتملكهم هذه النزعة النبيلة ، ومن زعم أن الاستعمار الرومانى أو الفارسى كان جديرا بالمهادنة فهو مفترٍ جرىء .

وما أنكر أن المسلمين فى أعصار شتى ملك أمرهم من ظلمهم وظلم الناس معهم ، وسوَّأ سمعتهم وسمعة الدين الذى نبت بين ظهرانيهم ! .

على أننا لم نفلت وما يفلت غيرنا من عقاب الله ، ونحن نقرأ فى كتابنا أن المستقبل لا تصنعه الأمانىّ الخادعة ، وأن مزاعمنا ومزاعم غيرنا لا وزن لها عند الله الذى يقول : **﴿ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب من يعمل سوءا يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرًا﴾** [1] .

إن ديننا يزن الأعمال بمثقال الذرة لا يقبل الفوضى الهائلة التى تقع بين الناس ، سواء كانوا مسلمين ، أم كانوا يهودا أو نصارى . .

---

(١) الآية : ١٢٣ من سورة النساء .

أما لهذا الحقد من حدٍّ ؟

كان لابـد من رسالـة جديدة تصحـح الأخطاء الجسيمة التـى انتشرت بين الناس ! ربما عرف أصحـاب العقول المتوسطـة أن الأصنام شيء لا ينفـع ولا يضر ، وأن عبادتها ضرب من السفه البيّن ، أفتظن أصحـاب هذه العقول يكتشفون الأغلاط السيئة التـى دسَّها أهل الكتـاب فى أطواء كتبهـم ؟ إنهم قد يستبشعـونها وقـد يتحيرون أمامهـا وقد يستبعـدونها فى أعماقهم وقد يحاولون إمرارها !! .

وذلك مـا حدث ، ومن ثـم شاع بين الناس أن الله يفعـل ويندم ، ويذكـر وينسى ، ويغضب فيطيش به غضبه ، وأنه قد يتجسـد ويمشى على الثرى ويأكل ويشرب ويصارع واحدًا من خلقه . . . الخ .

كما شاع أن المرسلين من لـدنه يسرقون ويزنـون ويمسكون ويحتالون ويقتلـون الخ ، فإن يك هذا شأن قمم الخليقة فماذا ينتظر من السوقة ؟ .

كان لابد من رسالة جديدة تشرح الصواب وتمحو الضلال ، وتنصف حقيقة الألوهية ، وتبرئ منصب النبوة وتضع الجماهير أمام الحق الذى تاهوا عنه دهرا طويلاً .

وما كان يقـدر على هذه المهمة الصعبة أحد قـط ، إلا محمد والوحى الـذى جاء به ﴿ **لم يكن الذيـن كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتـى تأتيهم البينة * رسـول من الله يتلو صحفًا مطهرة * فيها كتب قيمة** ﴾ [1] .

---

(١) الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ من سورة البيّنة .

ومع أن الكهنة على اختلاف رتبهم تفرقوا فى أقطار العالم ينشرون أفكارهم العليلة ، فإن القرآن الكريم ناداهم برفق ، ولم يكشف مقالتهم السيئة بل قال :

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ [١] .

إنه لم يذكر بتفصيل ما هم به مُتَّهمون ! مع أن تهمتهم هى الافتراء المنكور على الله ورسله ، وذلك تأليف لهم ، و إغراء بالعودة إلى الحق ، ومنع للإحراج ! .

ومع ذلك فلا يزال القوم يخاصمون القرآن ونبيه الهادى الكريم ولا يزالون يطيرون شرقا وغربا ومعهم صحائفهم المعتمة ملأى بما يسخط الله ويحط من أقدار النبِّيين ! .

لقد كانت رسالة محمد حدّا فاصلا بين عهدين ، عهد اعتكر فيه رونق الدين وغلبته شوائب دخيلة .

وعهد تألق فيه التوحيد ، وتقرر فيه ما ينبغى للذات العليا من تمجيد وتنزيه ، كما تقرر فيه ما يجب على البشر من انقياد لله و إنفاذ لأوامره يتقدمهم فى ميدان العبودية رسل صالحون ، أتقياء شرفاء **﴿عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾** [٢] .

يستحيل أن يحقد على محمد رجل له ثقافة محترمة أو عقل بصير لماذا يحقد عليه ؟ ألأن كتابه يصف الخالق الأعلى فيقول :

﴿الله لا إلـه إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ [٣] ؟ أو لأن الله تبارك اسمه يتحدث فى هذا الكتاب عن نفسه فيقول :

---

(١) الآيات : ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

(٢) الآيات : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .

﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قـرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تُفيضون فيه ومـا يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغـر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ [1] .

أهذه هى الجريمة التى ارتكبها محمد ؟ أو كان مـن الممكن أن يكون رجلاً صالحًا لو أنه وصف الله بالغفلة عما يقع أو الندم على ما فعل ؟ . .

هل فى الـدنيا كتاب أثنـى على الله بما هـو أهله ، وأسند لـه صفات الجمال والجلال ، وخصَّه بـالأسماء الحسنى ، وجعـل الأفئدة تـوجل مـن خشيته ، أو تنشرح بمحبتـه كهذا القرآن الكريـم ؟ أذلك ما يجعل أهل الكتـاب يُشَرِّقُون ويُغَرِّبون للتنفير منـه والتحامل على صاحبه ؟ .

الحق أنى أنظر إلى رجال الكهنوت الناقمين على محمد فلا أرى فى سيرتهم ولا فى سريرتهم إلا ما يثير الزراية .

إن اليهـود عاشـوا فى جزيـرة العـرب عدة قـرون قبـل ظهور الإسـلام فماذا فعلوا ضـد الوثنية؟ .

لو أن عشر تعصبهم لـلإسلام وبغضهم لرسـوله وجهوه ضد الجاهليـة الأولى لزالت أو خف ظلامها ، إنهم عاشوا على استبقائها وإيقـاد الفتن بين أهلها ، وكأنما كانت مهمتهم أن يختالـوا بما ورثوا من علم مغشـوش ، وأن يعدُّوا الأميين غنيمة بـاردة يأكلونها باسـم الله خالق الشعب المختار .

أتبكى الإنسانية على دين تلك حقيقته وهذا تاريخه ؟ .

ولو أن رجـال النصرانية أحسنـوا السير على منهج عيسـى لكان لهم مـع العهد القـديم

---

(١) الآية : ٦١ من سورة يونس .

سياسة أخرى ، ولكان لهم مسلك أهدى وأرشد ، لكن غلب عليهم أمران مَعيبان ! إثبات التجسد الإلهى ، وتجويز السقوط على الأنبياء .

ولم فعلوا ذلك ؟ ليسهل تصوُّر إلّه إنسان أو إنسان إلّه ! وليسهل قبول قضية القربان الذبيح فداء لخطايا لم ينج منها أنبياء الله أنفسهم !!

وقد كرهوا أشد الكراهية صيحة محمد وهو يقول - بأمر الله -

﴿ قل : أغير الله أبغى ربًّا وهو رب كل شىء ولا تكسب كلُّ نفس إلا عليها ولا تَزِر وازرة وِزْرَ أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [1] .

إننى لا أتبع محمدا لأننى وازنت بينه وبين المنتمين إلى السماء والمحدِّثين عن الله فوجدت كفته أرجح ، إن ذلك يكفى لأتباعه لو كنت ممن يوازن بين المرويَّات ، ويؤثر جانبًا نزيها على جانب متهم . . !! .

الأمر عندى أن الإيمان مصدره الأول العقل اليقظانُ النقَّادُ الباحثُ عن الحق فإذا وجده تشبث به إلى آخر رمق .

وقد عرفت الله وامتلأ فؤادى بأنه عظيم ، عظيم لأنى فكرت وفكرت ثم وجدت أن الله الذى آمنت به لا تتوفر الأوصاف الواجبة له إلا فى كتاب محمد ! .

القرآن هو الكتاب الفذ الذى لا يعرفُ غَيْرَه عصرُ العلم ومحمد هو الإنسان الذى تتجسد فيه أشواق البشر إلى التسامى والروحانية والارتباط بالله .

وذاك سرّ بقاء الإسلام إلى يوم الناس هذا ، وسر خلوده إلى يوم يبعثون ! مع أن الظروف التاريخية التى اكتنفته تشبه العواصف التى تعرقل سير السفينة ! .

وعندما أرمق الماضى أجد الإسلام خلال سنيه العشرين الأولى أجهز على الوثنية العربية التى قاومته أشرس مقاومة ، ثم أجهز على المستعمرات اليهودية فى الحجاز وقلّم أظافر اليهود عسكريا ، وقبلهم فى دولته أفرادًا لا يقدرون على كيد ! .

---

(١) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .

أما الصليبية فإن مقاومتها للإسلام ظلت متقدة النار خلال القرون التى عاشها منذ ظهر إلى الآن !! أربعة عشر قرنا والخصام لا تفتر حدته ولا تنقص شدته . .

أخذ هذا القتال عنوان الحرب مع الروم ، ثم أخذ عنوان الحروب الصليبية ، ثم أخذ عنوان الحرب بين الأتراك وأوربا ، ثم أخذ عنوان الاستعمار العالمى ، واختفت العناوين وبقيت الحقائق فى الكشوف الجغرافية ، التى قادتها المصادفات إلى الأميركتين من ناحية وقادت إلى الهند وشرق اسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح من ناحية أخرى . .

ثم جاء العصر الأخير ومعه الغزو الثقافى ، والتيارات الدولية المختلفة ، والتفاف الكنيسة حول الإسلام تريد أن توجِّه إليه الضربة القاتلة !! .

أربعة عشر قرنًا تساقطت من حولنا نحل شتى وبقيت الصليبية وحدها تحاول إخماد أنفاسنا ! والدول الاستعمارية هى التى صنعت ولا تزال تصنع إسرائيل ، إن الجُحر الذى نُلدغُ منه لم يتغير ، والعدو الذى قاتلنا أيام الرسول فى « مُؤتة » هو هو الذى يقاتلنا الان ، وقد أمسى لا يُخفى ضغائنه ولا أغراضه استهانة بنا . . !! .

عندما زار بابا روما « ساحل العاج » ساءلت نفسى : تُرى : ما الغرض والوضع هناك معروف ؟ المسلمون من ناحية الإحصاء ضِعْف النصارى ، ولكن اللغة العربية تموت أمام زحف الفرنسية ! والقوى المادية والأدبية حِكْر على أعداء الإسلام ! إن الأيام مُدْبرة عن المسلمين إدبارًا يقبض الصدر ، بل هم غرباء فى أرضهم ! .

وعرفت أن الأحفال الفخمة أقيمت لمناسبة افتتاح كنيسة فى العاصمة تُعدُّ من أعظم كنائس افريقية . .

قلت : هل يزور المسلمين المستوحشين أحد ليخطبهم فى مسجد جامع ؟ لا ! هل هم منسيّون ؟ لا .

إنهم محاصرون ! مَنْ حاول زيارتهم مُنع ، إما فى بلده وإما فى بلدهم ! لأن الأوضاع العامة توجب ذلك ! .

ودرست أحوال المسلمين فى فرنسا وانجلترا ودول أوربية أخرى ! إن ملايين كثيرة هناك تُنْتَقَص من أطرافها ومن صميمها ، والمسلمون يفرحون فرحا أبله بالجماعات القليلة التى تدخل فى الإسلام هناك ، وينسون من يُختطف أو يُسرق أو يتلاشى فى تيار المادية الجارفة .

ومن أيام التقيت ـ وأنا خارج من جامعة الأمير عبد القادر - بشاب جزائرى يشكو لى أنَّ أخته قد تزوجها فرنسى يزعم أنه ترك النصرانية ، فقلت له : قد يكون صادقا . . ! قال : إنه يعتنق ديانة أخرى لم أعرفها ، لعلها « شهود يهوه » وأنا قلق على دين أختى ! وأدركت المأساة ، إن الآف المسلمين متروكون دون حارس لتتخطفهم الأوهام ، أو لتغرقهم الحضارة المادية فى عبابها المؤّار فلا يظهر لهم أثر . .

وفى أوربا عشرة ملايين مسلم تقريبًا ، ذهبوا إما فرارا من أوطان تنكرت لهم ، أو طلبا للرزق ، أو هم أوربيون أصلاء فى ديارهم لَوَتْ أعناقهم الشيوعية - كما حدث فى ألبانيا مثلاً - والغريب أن أواصرهم تقطعت ببنى دينهم ، ولولا بعثات قليلة ترسلها حكومة الجزائر إلى أبنائها فى فرنسا لقلت : إن المسلمين هناك قد نسيتهم الأمة الكبرى فى الشرق .

إن حملات صليبية ماكرة تعمل دون ما ضجة لتذويب المسلمين فى الأراضى التى هاجروا إليها وقد أدْرَكَتْ حظا من نجاح ، وهذه الحملات تتمم ما تصنعه البعثات التبشيرية فى افريقية وآسيا ، والتى سيطرت على التعليم والإذاعة ، وتكاد تصبغ البلاد بالصبغة المسيحية . .

والغريب أن جماهير العرب والمسلمين مذهولة عما يراد لها ، أو مشغولة بقضايا افتُعِلَت افتعالا ، ومن هنا فالمستقبل محفوف بأخطار رهيبة ، فهل نصْحو قبل فوات الأوان ؟

قال لى صديق لم يَرُقْهُ تفكيرى : لقد فاتك شىء ما كان ينبغى أن يفوتك ! قلت : ما هو ؟ قال : إن عاطفة التدين فى هذا العصر وحقيقته ليستا محل القبول والرضا ، والعالم الان يقترب من خمسة مليارات ، ثلاثة أخماسهم بين شيوعى أو وثنى ، ومن يدرى ؟ فقد

تقع كارثة أخرى تعصف ببقايا المؤمنين ، على اختلاف ما يدينون من دين ! .

والأفضل أن نداوى الإحن التى خلفتها القرون ، ونصلح ذات البين ، ونتعاون على إقصاء الإلحاد ، وردِّ الإنسانية إلى ربها . . . ! .

فكرت غير قليل ، ثم قلت : لا بأس ، إننى أبسط يدىَّ لصلح لا غشَّ فيه ، والعدل يسع وجهات النظر المختلفة ، وقد جاء فى القرآن الكريم﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير**﴾ (١) .

أيها الصديق لكى يكون الحوار بين الأديان سليما لا تقل للعربىِّ الطريد من داره : اعترف أولا باسرائيل ثم تعال نصطلح ! علام نصطلح إذا كنت لا تعترف بوجودى ولا بحقوقى ؟ .

إن تعليمات عامة صدرت من جهات لا نحب تسميتها تقول لكل قلة دينية فى الشرق العربى : سودى الكثرة ، وأخضعيها سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا إن أمكن ، وموقف الموارنة فى لبنان نموذج لهذا التحدّى المعيب .

وهو مثال عملىٌ للطوائف الأخرى يجب أن تقلده فكيف يقع صلح على أساس هذا التفاوت ؟ .

إن المسلمين فى جنوب السودان يساوون فى العدد من استطاع التبشير إدخالهم فى المسيحية ، والمراد الآن وقبل الآن أن تكون الحكومة فى الجنوب مسيحية ! ويجب إهدار نظرائهم المسلمين وإهالة التراب على حقوقهم ! فكيف يتم صلح على هذا الأساس الجائر؟ .

---

(١) الآية : ١٥ من سورة الشورى .

إنه لا بأس بحوار بين الأديان ، بل ذلك ميداننا المفضل ! إن الفرار من المنطق الهادئ والجدال الحسن هزيمة نأباها على أنفسنا .

بيد أننا بداهة لا نقبل الدنيَّة ، ولا نسمح لمن يطلب منا أن نسلمه أرضنا وزماننا وحاضرنا ومستقبلنا ، والاستعمار العالمي يريد ذلك بصفاقة . . .

فى أوربا وأمريكا رجال نشعر بأن لهم شرفا ، وأنهم على درجة من سلامة الفطرة وإصابة الحكم ، وحبذا لو تلاقينا طويلا مع هؤلاء فى مؤتمرات علنية أو سرية ، وتدارسنا كل شىء فى جو من الصراحة والمودة . .

يا صديقى أنا أعرف أن ظروف المسلمين رديئة وأنهم مُنوا بهزائم موجعة ، على أنى أدرك سر هاتيك الهزائم كلها ، إنها من عند أنفسهم ، ولو شاءوا لصاروا إلى حال أفضل ، ومكانة أعز ثم هناك شىء آخر أريد أن أفيض فيه ! .

إن الإيمان نصفان : نصف عقل ، ونصف نقل !! وقد يُعذَر من لم يبلغه النقل ، أما من جحد عقله وسفه نفسه فلا عذر له ! .

قال لى صديقى : ماذا تعنى ؟ قلت له : سبق أن شرحت أنى أعرف ربى بعقلى ، إن قلبى ينبض بانتظام بين جوانحى ، مَنْ يحركه ؟ أنا ؟ أنت ؟ ما يحركه إلا الله ! .

إن الأولاد يتكونون فى بطون أمهاتهم على نحو رائع ، مَنْ يصنع المخَّ والحواس وسائر الأجهزة والأعضاء ؟ المرأة ؟ الرجل ؟ مَنْ إلا الله ؟ إن إنكار الألوهية لون من البهيمية ، وما أرى الإلحاد إلاّ عَمىً جديرًا بالاحتقار كله . .

فإذا عرفتُ الله بعقلى فإنى لا أعرف كيف أصلّى له ، وكيف أقوم بحقه ، إلا عن طريق نقل من صادقٍ معصوم .

والوحى الصحيح يؤكد المعقولات ويستحيل أن يصادمها ، ثم ينشئ عبادات تستريح إليها الفطرة وتتعامل بها مع الله ، ومع الناس ، فلا تضل ولا تشقى . .

عندما حضرتْ الوفاةُ الأديبَ الفرنسى « فكتور هيجو » جاءه القس ليشهد ساعته الآخيرة - أو ليغفر له حسب الشعائر الدينية عندهم - وأبى الأديب الكبير أن يستقبله ، قائلا : لا حاجة لى بك ، إننى أُو مِنُ بالله وقد تصدقت بمالى . .

لقد هزمتنى هذه القصة ، وشعرت أن هذا الأديب الكبير أقرب إلى الله من كثيرين ، لقد امن بعقله ، ولم يجئه نقل صحيح يستريح إليه وهو أولى بالله من رجل الدين الذى جاءه ! .

وفى أرجاء الدنيا كثيرون من هذا الطراز ، أقروا المعقول ورفضوا المنقول ، ولهم عذرهم ، وقد تحرك هؤلاء فى ميادين العلوم الكونية والحيوية والإنسانية ، وكانت أيديهم الطولى فى صنع التقدم الحضارى الذى نشهده . .

وتاريخ الغرب بعد عصر النهضة يحكى الصراع الدموى الذى دار بين الدين والعلم ، والدين والحكم ، والدين والاقتصاد . . الخ ، والدين المشتبك فى هذا الخصام ليس الإسلام بداهة فأين كان الإسلام ؟ وكيف غاب عن هذه الفوْرة الخطيرة ؟ .

أكره أن أدافع بالباطل عن قومى ! إن قومى خذلوا دينهم ، وناموا عن مطالبه ، وغلبتهم شهوات نفسية وبدنية وغفلات عقلية واجتماعية ، فحقت عليهم كلمة الله ، ودفعوا ثمنا غاليا لانسحابهم من ميادين الحياة الصحيحة .

لقد كان هذا الثمن غزوا عسكريًا وثقافيًا واجتماعيًا فيه الغرب المتفوق ، ومن ورائه الصليبية التى اصطلحت معه على أن تقوم بخدمته ، ويقوم هو بتركها تؤدى دورها القديم .

وكان أن ماجت بلاد الإسلام فى فوضى لا ينقشع لها غيم إلا حل محلّه غيم أشد سوادا وأملأ بالشرور .

والمدنية الحديثة نشأت من نشاط أرضى ولم تنبعث عن وحى سماوى ! من أجل ذلك كانت الأنانية الطابع الأول لِحَمَلَتِهَا ، وكان نسيان الله وجحدُ لقائه أمرا مألوفا فيها ،

ورخصت الدماء ، وأهين الضعفاء ، وكثر السكارى ، وشاعت عبادة الجسد ، وانتشرت الأمراض الجسمية والنفسية .

والعالم الان يتربص بعضه بالبعض الآخر ويخشى أن ينتحر فى أى لحظة بما يملك من أسلحة الدمار الشامل ! إنه فقير إلى رحمة الله وحنانه ، وأمام أهل الإيمان وأصحاب الوحى مجال ممهود لعمل مثمر إذا شاءوا .

ونحن المسلمين نقدر على اسداء خير لأنفسنا وللناس ، ونعتقد أن لدينا الكثير فهل يُسمح لنا بذلك ؟ أم لابد من اعتبارنا مأكلة الأقوياء ؟ واعتبار ما لدينا جملة أكاذيب ؟ .

أنا مستعد لأن أصحب أى قسيس لأية عاصمة كبرى ، ويمنح كلانا ساعة واحدة فى أنديتها الكبرى نتحدث فيها عن الله الواحد ، عن المرسلين ، عن الإنسان ، عن المال ، عن الشورى ، عن العدالة الاجتماعية عن الأسرة عن الآخرة عن أى شىء يطرح علينا من حقائق الدين ، وليكن الحديث على شكل ندوة ، أو على التعاقب ، ويمنع فيه منعًا صارمًا أى تهجم أو عدوان . .

ولمن شاء أن يتبعنى طائعًا غير مكره ، ولمن شاء أن يتبع صاحبى .

ويمكن أن تعقد مؤتمرات خاصة على أى مستوى يرضاه رجال الكهنوت المسيحى لنتدارس فيها القضايا التى تطرح .

على أن هذا كله لا جدوى منه إذا بقى أولئك الرجال يتوارثون إحن القرون ، ويطوون أفئدتهم على بغضاء لاقرار لها نحو الإسلام وأمته .

فى هذه الأيام يتنفس الحقد القديم ضد أى دولة ترغب فى إعادة التشريع الإسلامى ومن قبل ذلك حوربت اللغة العربية بأسلوب ينتهى لا محالة بإبادتها ، ومن بضع سنين عرف المسيحيون بغتة أن اليهود أبرياء من دم المسيح (!) وأنه لا يجوز أن يلعنهم المصلون فى الكنائس ! ما هذا الود الطارئ ؟ .

إن كل ما فى العالم من شرور يمكن أن يعالج بكلمة « الله محبة » إلا الإسلام فيجب أن يعالج بأن « الله كراهية » .

على أية حال نحن نعرف أن كهنة الصليبية العالمية راغبون عن الوقوف فى وجه مباذل المدنية الحديثة ومظالمها ، لأنهم يشعرون بأن لها فى أعناقهم ديْنا ، فقد تناست تاريخًا وعفت عن كثير ، ولم تنبش قبور العلماء والعباقرة الذين قتلتهم محاكم التفتيش .

ثم هى الآن تمكنهم من ضرب الإسلام ، وهذا التمكين يغفر للمدنية الحديثة كل شىء ولو أهلكت الحرث والنسل . . .

وفت الكنائس المسيحية بعهدها لليهود ألا تمسهم بسوء ، وألا تؤلب عليهم أحدًا ، وظهر ذلك جليا فى أحفال عيد الميلاد ورأس السنة . . . ولم يحدث إلا لغط حول الإرهاب العربى لليهود (!) وعداء اللاجئين المطرودين من قراهم ومدنهم للسلطات التى أكرهتهم على الخروج من ديارهم . . ! .

وشىء آخر سمعته والهموم تهاجمنى ، لمز للجهاد الإسلامى ، وللرسالة التى قامت على سفك الدم . .

قلت فى نفسى : ألا يظفر العرب بالسماحة والمحبة اللتين ظفر بهما اليهود فى هذه الأيام النحسات ؟ هل كانت إساءات المسلمين للمسيح وأمه أشد من إساءات اليهود ؟! .

ورجعت للتاريخ فوجدت العجب لقد ألقى الرومان القبض على أحد اللصوص ، وعلى المسيح عيسى بن مريم بدسائس يهودية .

وكان من المصادفات أن يَحُلَّ عيد رومانى يمكن فيه العفو عن المجرمين ، ورأى اليهود أن يعفى عن اللص ويؤاخذ المسيح بتهمته . . .

وهاك القصة كما رواها مَتَّى فى إنجيله : « قال لهم بيلاطس فماذا أفعل بيسوع الذى يدعى المسيح ، قال له الجميع ليصلب ، فقال الوالى وأى شر عمل ؟ فكانوا يزدادون صراخا قائلين ليصلب ، فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شىء بل بالحرى يحدث شغب ،

أخذ ماء وغسل يديه قدام الجميع قائلاً إنى برئ من دم هذا البار ، أبصروا أنتم ، فأجاب جميع الشعب وقالوا : دمه علينا وعلى أولادنا ، حينئذ أطلق لهم باراباس ، اللص المقبوض عليه ، وأما يسوع فجلده وأسلمه للصلب » (مَتَّى ٢٧ : ٢٢ - ٢٦) .

وفى التلمود تَجَنٍّ سافر على المسيح عليه السلام ، فهو متهم بولادة غير شرعية ، وأمه الصدِّيقة هدف سهام يهودية مسمومة ، والمسيح خارج عن الإيمان ، ومحروم من رضا الله ، وخاطئ ، ويدفع الشعوبَ إلى الخطيئة وسرق اسم « يهوه » المبارك وادعاه لنفسه ، فعقابه جهنم وبئس المصير .

وبلغ من جرأة اليهود أن عالما من كبار علمائهم فى العصر الحديث وهو « لوب » نشر فى مجلة « الدروس اليهودية » ما يؤيد شتيمة المسيح واتهامه ، وهذا نصه : « أى عجب أن يتضمن التلمود بعض المذمات فى حق يسوع ؟ .

إنما الغريب أن يكون الأمر على نقيض ذلك ، وان كان لأمر من العجب فلنعجب من أن التلمود لم يذكر من المذمات أكثر مما ذكر » .

ومما ورد فى التلمود عن المسيح :

« يسوع الناصرى فى الحج بين العار والنار ، وحملته أمه من « باندرا » العسكرى سِفاحًا ، والكنائس المسيحية قاذورات ، وأساقفتها كلاب نابحة ، وقتل المسيحى فريضة على اليهودى ، والعهد مع المسيحى ليس عهدا ملزمًا يجب الوفاء به ، وفرض على اليهودى لعن رؤساء المسيحية » .

فهل فعلنا نحن شيئًا من ذلك ؟ وهل ذكرنا المسيح وأمه إلا بكل شرف ؟ ماذا نقول . . .

حملة صَليبيّة على الإعجَاز العِلْمى للقرآن الكريم

تدارست مع أحـد الإِخوة ما نشره المعهد البابوى عن الاعجاز العلمـى للقرآن الكريـم ، وشعرت بـأن قدرًا كبيرًا من التحـريف والمغالطـة تخلل الكتـابات المنشورة فى هـذا الموضوع المهم .

إنه يسرنا أن يقرأ القوم ما لدينا ، وأن يتنـاولوه بالنقد العلمى ، ولهم الحق فى إبداء وجهة نظرهم المخالفة ، وما نشكو أبدا من هذا المسلك . .

لكن « مجلة الدراسات العربية والإسـلامية » الصادرة عام ١٩٥٨ أعدادها ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ تنكبت هـذا النهج ، واتخذت طريقًا آخـر يخدم الحملة على الإسلام ، ويحقق سيـاسة الفاتيكان فى النيل منه ، وتعكير مستقبله .

وقد كان الأسلوب ناعمًا ماكرًا ، ولكنه يحمل فى طياته ما سوف نراه . .

تـرى المجلة أن الحديـث عن الإعجـاز العلمى للقـرآن بدعـة اختلقها دكتـور موريـس بوكاى ، وأن المسلمين أعجبتهم هذه البدعة المساعدة فطاروا بها هنا وهناك . . . ! .

وهذا كـلام باطل ، فما كتبـه موريس بـوكاى أواخر السبعينيـات من هذا القـرن لم يأت بجديد يفاجئنا بـروعته ، بل أكد ما كان معروفا لدينـا ، والحديث عن الإِعجاز العلمى فى القرآن الكريم كان شائعًا قبل ذلك بنصف قرن .

كان الأستـاذ محمد أحمد الغمـراوى سنة ١٩٣٧ يدرس كتـابه « سنـن الله الكـونية » فى السنة الأولى من كليـة أصول الدين بالقاهـرة ، وما أدرى أكان موريس بـوكاى ولد أم لا ؟ فكيف يقال : إنه صاحب « مودة » الإعجاز العلمى ؟ .

وقد اعتمدت على كتاب الغمراوى وأنا أتحدث عن الإعجاز العلمى فى كتابى « نظرات فى القـرآن الكريـم » المؤلف مـن ثلث قـرن تقريبـا ، وحديـث العلماء عن هـذا اللون مـن الإعجاز مأنوس مدروس فى كتبنا من زمان بعيد . . .

وتمضى المجلة فى وهمها عن دور « موريس بـوكاى » فى الإعجاز العلمى فتعرض ما كتبه الأستاذ أحمد حنفى عن التفسير العلمى لـلآيات الكونية وكأنه فيما كتب قد تـأثر ببوكاى ، وأنا مـوقن بـأن المحرر يعرف أن كتـاب أحمد حنفى صدر أوآخـر الخمسينيات ، وأنـه لم ير بوكاى ولم يقرأ له ، فكيف يتأثر السابق بعشرين سنة باللاحق المتأخر الذى جاء بعده .

لكن هذا اللبس مقصود للأسف ، ولا يعتذر عنه بأن الطبعة الثانية لكتاب أحمد حنفى صدرت عام ١٩٨٠ ، فإن الطبعة السابقة كانت عام ١٩٦٠ م وقد تحدث المؤلف عن أرائه فى دروس ومحاضرات كثيرة قبل ذلك ، والعلاقة بينه وبين موريس بوكاى مقطوعة ! .

ثم يوهم المحـرر جمهور القراء بأن الإعجاز العلمى - الـذى أرخ له على كامل حسين ، وأن له مقالاً منشورًا عام ١٩٨٣ م فنَّد فيه هذا الإعجاز وأبطله . .

والدكتور كـامل حسين مات من عشر سنين ، والمقال المنسـوب إليه نشر عام ١٩٦١ م وهو مقال نعرف قيمته عندما نعرف كاتبه . .

كـامل حسين طبيـب بشرى ، كرس حيـاته فى دراسـة المذاهب البـاطنية مـن قرامطـة ونصيرية وإسماعيليـة . . . الخ ، ثـم ألف قصـة عنوانها « قـرية ظـالمة » تعتبر من الأدب التبشيرى الحديث ! ومات الرجل والكنيسة راضية عنه . . .

أمـا مقالـه عن الإعجـاز العلمى الـذى حظـى بالثنـاء المستطاب ، فهـو مقال محشـو بالسباب، وليســت له قيمة علمية ، وقـد أضفت المجلة البابـوية نعوتا طيبـة على الطبيب المريب ، وهو كما ذكرنا . .

إننا سنتحدث عن نماذج للتفسير العلمى أدق وأصدق مما اختار محرر « مجلة الدراسات العربية والإسلامية » التى تصدر بروما ، ولكن قبل هذا الحديث نشجب التدليس العلمى

الذى ظهر جليا فيما ساقه المحرر من تواريخ للأشخاص والبحوث .

ويظهر أن اللعب بالتواريخ عادة قديمة عند القوم نذكر نموذجا لها بعيد الأثر فى تعمية الحقائق وتضليل الجماهير .

عندما انهزم الرومان قديماً أمام الفرس كانت هزيمتهم من الشدة والخزى بحيث قدر العالم أن الرومان لن تقوم لهم قائمة بعدها . .

لقد فقدوا مستعمراتهم فى الشرق الأوسط كلها ، وأُرغموا على دفع غرامات فادحة من أموالهم ونسائهم ، وهذا ذل ما وراءه ذل ! .

بيد أن صوتا فذا فى أعماق الجزيرة العربية كذَّب الظنون كلها ، وباغت الناس بخبر مثير ، هو أن الروم سوف ينتصرون فى بضع سنين !! ولم يكن هناك ما يدفع إلى تصديق هذه النبوءة العجيبة .

وانتصر الروم فى الأمد الذى حددته النبوءة وانهزم الفرس انهزاما سلبهم ما أخذوا ، وكاد يفقدهم أنفسهم .

وكان على نصارى العالم أن يستمعوا إلى هذا النبى ، أو يدرسوا سيرته ، أو يؤمن بعضهم على الأقل برسالته !!! لكن شيئًا من ذلك لم يحدث ، فقد قال لهم المؤرخ الرومانى جيرون إن سبب هذه النبوءة هو حقد محمد على كسرى ، بعد أن مزق له رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام(!) .

والرسالة التى يذكرها المؤرخ الكذوب أرسلت إلى كسرى بعد هذه النبوءة ببضعة عشر عامًا ! .

النبوءة كانت فى العهد المكى ، والرسالة الداعية إلى الإسلام كانت فى المدينة ، قبل وفاة الرسول بثلاث سنين تقريبًا . . ! .

اللهم إلا إذا كان المؤرخ الرومانى يسرد الوقائع على نحو ما قال الشاعر العربى المخمور:

أسكر بالأمس إن عزمت على ... الشرب غدا ، إن ذا من العجب

وندع موضوع اللعب بالتواريخ إلى قضية الإعجاز العلمى نفسه ، فهذا الإعجاز لا يبدأ من فراغ ، إنه يبدأ من حقيقة لا يليق تجاهلها بباحث مخلص ! .

لقد شعر القارئون للكتب القليلة المنتسبة إلى السماء أن القرآن يمتاز بخاصة لا تعرف لغيره ، هى حديثه المستفيض عن الكون ، وحثّه القويُّ على النظر فيه ، ووصفه المتكرر لافاقه ، واستخلاصه عظمة الخالق من عظمة المخلوق .

وإنك لتستثار طوعا وكرها ، وتنتقل من بناء الكون إلى بانيه البديع عندما تقرأ .

﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا** ﴾ (١) .

﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها** ﴾ (٢) .

﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض . .** ﴾ (٣) .

هذه الآيات ومئات غيرها وصفتْ الملكوت وصفا دقيقًا لا تجد فى أسواره ثغرة .

وقد وثب العلم فى عصرنا وَثْبات رحبة ، وعرف من أسرار العالم ما لم يعرفه الأوائل ، واستمع إلى ايات القرآن ، وهى تصف الكون والحياة ، فوجد تطابقا أو تقاربا يقطع بأن مصدر هذا الكلام ، هو خالق العالم نفسه ﴿ **قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض انه كان غفورًا رحيمًا** ﴾ (٤) .

ومـاذا يقول علم الأجنة فى وصف القرآن لأطوار الجنين فى نشأته الأولى ، ومتابعته المذهلة لمراحل تخلّقه ؟ .

لم يكن هناك تصوير بالأشعة يستكشف هذه الخبايا داخل جدار الرحم ، لم يكن هناك علم تشريح يعرض مرئياته وتجاربه على الناس بهذه القدرة الصادقة ! .

---

(١) الآية : ٤٥ من سورة الفرقان .

(٢) الآية : ٢٧ من سورة فاطر .

(٣) الآية : ٢١ من سورة الزمر .

(٤) الآية : ٦ من سورة الفرقان .

أنّى لمحمد هذا العلم ؟ إن أرقى الحضارات عند بعثته كانت تجهل هذه الشئون ، فكيف بحضارة بدائية تملأ أكناف الجزيرة العربية وتجعل الوثنية دينها الأثير ! ؟؟ .

لا أحب أن يستحمق أحد فيقول : إن القرآن كتاب طب أو فلك ، فليس يزعم ذلك عاقل إنه كتاب يهدى إلى الله بأسلوب يربط بين عقل الإنسان وعجائب الكون ، مع ارشاد ذهنى يكمل قصوره ، ويضبط مسيره . .

وسنعلم أن هذا الإعجاز العلمى قد اختص به القرآن الكريم وحده ، وأن غيره مستبعد ابتداء لأسباب مادية وأدبية .

وقبل أن نشرح ذلك نريد تبيان أن علماء المسلمين لم تملكهم عاطفة جامحة وهم يتابعون هذا الإعجاز ، لقد نظروا إلى دلالات الكلام وفق مقررات علم أصول الفقه وهو فلسفة الإسلام فى استنباط الأحكام من مصادرها ، فأجازوا ما أجازوا ورفضوا ما رفضوا . .

سمعت قائلاً يذكر من إعجاز القرآن هذه الآية : ﴿ **والذى أخرج المرعى * فجلعه غثاء أحوى** ﴾ [1] يقول : الآية تشير إلى الأصل النباتى للنفط ، وهو ما يقرره العلماء الآن ! .

قلت : دلالة القرآن على ما تحكى بعيدة ، ولا أستطيع تفسيرها على هذا النحو ! .

وسمعت آخر يقول : لقد سبق القرآن إلى اعتبار الرجل هو المسئول عن نوع ولده أذكر هو أم أنثى ؟ وذلك آخر ما وصل إليه العلم من كشوف ، وساق من القرآن الكريم هاتين الايتين .

﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى** ﴾ [2] .

وكذلك قوله تبارك اسمه ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ ؟ [3] .

---

(١) الآية : ٤ ، ٥ من سورة الأعلى .

(٢) الآية ٤٥ ، ٤٦ من سورة النجم .

(٣) الآية : ٣٧ - ٣٩ من سورة القيامة .

وتدبرت الآيات فى الموضعين ، وشعرت بأن الدلالات واضحة وقريبة على أن ذكورة الولد أو أنوثته تجيء من ماء الرجل لا من البويضة التى تتكون فى الرحم ، وقلت : نعم هذا حق ! .

وعلى أية حال فإن النظريات العلمية لا تفسر بها الآيات القرآنية ذلك ما رآه علماؤنا ، فإن النظريات قابلة للتغير ، ولا نُعَرِّض القرآن لظنون رجراجة .

أما الحقائق العلمية ، فانها إذا وافقت كتابنا كانت تفسيرا حسنا له ، بل كانت تفسيرا عمليًا لقول تعالى ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق** ﴾ [1] .

قال لى بعض الكتاب : ان الباحثين فى الفضاء يتعرفون هل الكواكب التى يرصدونها بها ماء أو لا ، فإن وُجد بها الماء كان ذلك مظنة الحياة على سطحها ، أليس ذلك مصداق قوله تعالى :

﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون** ﴾ [2] .

قلت : إن الحياة البشرية وغير البشرية على سطح الأرض تعتمد على الماء يقينا ، والآية لا ريب فيها .

وقد تكون هناك حَيَواتٌ أخرى لأجناس أخرى لا علاقة لها بالماء ، اننا نحن المسلمين نتبع اليقين ، ونأبى الظنون والتخامين ، والإعجاز العلمى له رجاله الراسخون .

وأمثل من قرأت لهم الدكتور محمد أحمد الغمراوى طيب الله ثراه . والدكتور موريس بوكاى زاده الله هدى وتوفيقا .

والآن يجيء الكلام عن الكتب الأخرى التى تنتسب إلى السماء ونتساءل : هل وصف أهل دين ما ـ سوى المسلمين – كتابهم بأنه معجز ؟ إن التحدّى لم يقع إلا بالقرآن وحده

---

(١) الآية : ٥٣ من سورة فصّلت .

(٢) الآية : ٣٠ من سورة الأنبياء .

﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثلـه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ﴾ [١] .

أما الكتب الأخرى فلم تنسب إلى نفسها إعجـازا علميًا ولا بلاغيًا ولا نفسيًا ، وعرضت ما بها وكفى .

وشيء آخـر نتحدث عنـه مصارحين : أن الـوحى الالهَى المتجسـد فى القرآن ليسـت به شائبة من صنع بشر ، لكن الأمر الذى استقر عليه القوم فى آخر تعاريفهم للوحى أنه الهام من روح القدس ، لا تنفك عنه الخصائص الإنسانية عند من يتلقاه ! .

هل يعنى ذلك أن كلمات الكتاب المقدس تشبه أقوال الأنبياء ؟ كنت أتمنى ذلك ! .

الذى يبدو لى أن واضعى التعريف الأخير أرادوا به تجاوز ما استحال عقلاً أن ينسب إلى وحـى سماوى فى إصحـاحـات كثيرة ، أقـول : بـل مـا يستحيـل أن ينسـب إلى رجـال صالحين ! ! .

من أجل ذلك توقفت وأنا أقرأ مجلة « الدراسـات العربية » التى يصدرها المعهد البابوى وهى تعلـق على التفسير العلمى للقرآن الكـريم قـائلة : « إن هذا التفسير الـذى ظهر بين المسلمين هو محاكـاة للمحاولة المسيحيـة التوفيقية بين التـوراة والعلم التى وقعـت فى القرن التاسع عشر » .

وهذه جـرأة لا نتركها تمر ، فليست بين القرآن والعلـم فجوة نحاول ردمها ، ولا مسـافة نبغى تقريبها أو محوهـا ، إنما الفجوة العميقة والمسافة الشاسعـة هى بين العلم وبين التراث الدينى الذى تركه كاتبو العهد القديم .

ويستحيـل عقلاً ونقـلاً أن تنجح أيـة محاولة للتـوفيق بين الطـرفين ، إن الخلاف بينهما علمى وعقائدى وأخلاقى وتاريخى ! ! .

---

(١) الآية : ٨٨ من سورة الاسراء .

وأكاد أجزم بأن مؤلفى هذا الكتاب جمعت بينهم نية مشتركة فى تلطيخ سيرة الأنبياء ، ونسبة المناكر إليهم ، و إبراز حقيقة الدين ـ بعد سقوط قادته ـ كالحة رديئة .

إننا نحن المسلمين نأبى كل الإباء وصف إسرائيل بأنه نصاب مخادع احتال على سرقة النبوة ، وهى حق أخيه عيصو كما يقولون ، ومثل أمام أبيه الأعمى اسحاق أنه عيصو نفسه ولبس إهاب ضأن ليبدو كثير الشعر كأخيه ، وقلد صوته . . الخ .

هل النبوة منصب يُسرق ؟ وهل رسل الله لصوص يسلبون الآخرين حقهم ؟ .

ماذا تكون حقيقة الدين بعد ذلك ؟ وماذا ينتظر من أتباعه إلا أن يكونوا خطافين ؟ وكيف يتصور الناس الألوهية فى هذا الجو ؟ .

إن الصورة المثلى للألوهية ، كما ذكرها أحد كتاب العهد القديم أن يحكى للأجيال قصة طريفة ، كان إبراهيم جالسا تحت أشجار البلوط فى « ممرًا » ، فنظر بعيدًا فوجد الله قادمًا يمشى مع بعض الملائكة (!) فهرع إليه وسجد بين يديه ، وقال له : ان كان عبدك يجد نعمة لديك فتعال وتناول الغداء معه !! .

وقبل الرب الضيافة وشارك فى أكل عجل ذبحه له إبراهيم الخليل !! إنها الوهية عجيبة تلك التى جسدها لنا أحد كتاب العهد القديم ! .

والتفسير العلمى للتوراة فى القرن التاسع عشر حاول أن يوفق بين الدين والعلم وهو يواجه هذه الأساطير السقيمة .

والمسلمون عندما يتحدثون عن الإعجاز العلمى للقرآن إنما يقلدون فى هذا القرن العشرين ما فعله كهان القرن التاسع عشر فى العالم الغربى ! .

ترى ما فعلوا وكيف وفقوا ؟؟ .

ولست الآن فى مجال استعراض لما نأخذ به الآخرين من تخبط فى فهم الألوهية والنبوة ومعنى الوحى ، ومعنى التاريخ . . فذاك أمر له ميدان فسيح ، إننا فقط ننبه محرر مجلة الفاتيكان أن يكون يقظا أو حذرا قبل أن ينال منا بالباطل .

إنه يعلم أن مفكرى أوربا أحصوا مئات الأغلاط فى هذه الكتابات ، ورفضوا نسبة قداسةٍ مَّا إليها .

قداسة ؟ قداسة لنص يقول : ان الله صنع قوس قزح عند نزول الأمطار كى يتذكر ، فلا يترك المطر يهطل حتى لا يحدث فيضان آخر ، فإنه ندم على الفيضان القديم :

إلّه ذاهل يحتاج إلى منبِّه !! .

ومن أغرب ما قرأت ما جاء فى سفر « حزقيال » فى الفقرة ١٣ حيث يقول الرب لحزقيال : « وتأكل كعكا من الشعير على الخُرْءِ الذى يخرج من الإنسان : تخبزه أمام عيونهم - يعنى بنى اسرائيل - وقال الرب هكذا يأكل بنى اسرائيل خبزهم النجس بين الأمم التى أطردهم إليها » .

ترى : ما هى محاولات التوفيق بين العلم والتوراة التى بدأت مع القرن التاسع عشر ؟ وهل هذه المحاولات هى التى نقلدها نحن المسلمين ، عندما نتحدث عن إعجاز القرآن ، ونجعل التفسير العلمى نوعا من التفاسير للوحى الأعلى ؟ .

يؤسفنا أن نقول : إن المحرر لصحيفة الفاتيكان يهزل ، ويتحصن وهو يهاجم القرآن وراء نسيج من بيوت العنكبوت .

وكأنما شاءت الأقدار أن تثأر للكتاب الذى افترى عليه المفترون ، فإذا نقابة الأطباء فى مصر تدعوا إلى مؤتمر عالمى لبحث الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، والتقى فى القاهرة علماء قدموا من نيف وعشرين دولة ، وقُدِّم فى الموضوع نحو ثلاثمائة بحث ! .

ورأينا الراسخين فى أهم علوم العصر يستمعون فى وعى إلى ما يقال ، فلما رأوا الصوت الذى انبعث من خمسة عشر قرنا يتحدث إليهم حديث خبير بأسرار الحياة ، عليم بقوى الكون والانسان ، لانت قلوبهم لذكر الله ، فمنهم من ذهب الى الأزهر يعلن اسلامه ، ومنهم من قرر متابعة الدراسة مع إخوانه ، وهو مبهور مما أفاد ! .

الدكتور « برسو » أستاذ التشريح يقول : إن تحقيقه لبعض الآيات والأحاديث أشعره بأن القرآن وحى الله إلى محمد يقينا .

فمن أين أتت هذه المعارف التى صدقتها كشوف العصر الحدثة ؟ ويتساءل الدكتور «مارشال جونسون » لماذا لا يكون محمد نبيا ؟ ومعه هذا الكتاب المشحون بالنظرات الصائبة إلى العالم وقواه وأسراره التى تجلت لنا فى القرن العشرين ؟ .

نقول : هل أحق منه بالنبوة من نقرأ التراث المنسوب إليهم فلا نجد به إلا محنة العقل والضمير ، ودسائس الحقد والجهل ؟؟ .

ويقول الدكتور « كيث مور » أستاذ علم التشريح وأحد الخمسة الأوائل من علماء الأجنة وله مؤلف مترجم إلى ثمانى لغات : إن تصنيفنا لأطوار الجنين لم يعرف إلا أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن .

وقد أعطيت مراحل التخلق فى بطن الأم أرقاما وحروفا أبجدية لا معنى لها ، ولكن الدراسات الحديثة المقارنة لعلم الأجنة ، وللقرآن والسنة أسفرت عن مصطلحات أخصر وأنفع تعتمد على الشكل الذى يمر به الجنين ، شكل النطفة والعلقة والمضغة والعظام وكسوة العظام باللحم ثم طور النشأة الأخيرة ! .

وعرض الدكتور صورا تبرز هذه الأطوار وفق ما ذكر القرآن الكريم من خمسة عشر قرنا .

نقول : وبحوث اليوم كثيرة ، وبحوث الغد أكثر ، اننى حسن الظن بالفطرة الانسانية مادامت تسترشد بالوحى الأعلى ، وتتحرى مرضاة خالقها .

ومصيبة الانسانية فى نظرى من فريقين : فريق يستعلى على ربه أو يفسق عن أمره ، وفريق يُزوِّر مراده ويفترى عليه .

وفى بعض الأحيان أبحث عن أسباب العوج السائد ، فأرى الذين قدموا الحق شوهوا وجهه وزهدوا الناس فيه ، وأرى الآخرين هاموا على وجوههم ، ما احترموا فطرتهم ولا أنصفوها .

والمدنية الحديثة تتبع هواها وتأبى بشدة أن تخضع للدين ! .

ولا يزال الدين جديرا بالازدراء والنبذ اذا كان رجاله يحاربون التوحيد الإسلامى و يبيتون الويلات له ، ويهادنون الالحاد الأحمر والأصفر ولا يشتبكون معهما .

ولا يزال الـدين أهـلا لظنون السـوء إذا وجه جهده بجنـون لمحاربـة تعدد الـزوجات ، وصمت صمت القبور عن شيوع الزنى واللـواط ! ! . أليس ذلك ما يفعله الفاتيكان الان ، وما يجتهد رجاله الكبار والصغار لتحقيقه؟ منتهزين الهزيمة التى ألمت بالمسلمين فى العصر الأخير لبلوغ مآربهم . .

لقد انطلق العلم وحده منفردا بزمام الانسـانية جمعاء وحقيق به أن ينفرد ! مَنْ يَشْرَكُهُ فى هذه القيادة أو يستبد بها دونه ، ورجال الأديان على ما علمنا ؟ . .

على أن المسلمين إذا ارتفعوا إلى مستوى الاسلام أنقذوا أنفسهم وأنقذوا الدنيا معهم .

إن العالم اليـوم يفكر فى الانتحـار ، وقد يصيبه مـسٌّ فيقدم على حـرب تحصد الأخضر واليابس ! فهل نصْحو نحن قبل فوات الأوان ؟ ونأخذ على أيدى العابثين بالأديان؟ .

الحُكم الإسلاَمِى لا ينطلقُ منْ فراَغ

عندما كان موسى عليه السلام يكافح لتحرير قومه من ظلم الفراعنة واجه متاعب جديرة بالتأمل ، وجلّ هذه المتاعب كان من قومه أنفسهم ! .

أصدر اليهم الأمر أن يرحلوا من مصر فى ليلة موعودة ، وأن يستخفوا تحت جنح الظلام متجهين شطر البحر الأحمر ، واستجاب اليهود للأمر الذى أصدره قائدهم ، فلننظر : آكانوا متلهفين للخروج من مصر ؟ أكانوا متعشقين للحرية التى فقدوها ؟ والأمان الذى حرموه ؟ آكانوا كارهين لجوّ تذبح فيه الأبناء وتستحيا النساء ويُصب فيه البلاء ؟ .

إن هذا ما يتبادر للأذهان .

غير أن الواقع غير ذلك ، فإن بنى إسرائيل كانوا قد ألفوا الدنية واستكانوا للضيم على نحو ما قال أبو الطيب :

من يهُن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميّت إيلام !

وقد نبه القرآن الكريم إلى موقف الشعب من القائد الذى يبغى تحريره قال تعالى : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم**﴾ [1] إن بعض الشباب الحديث السن السليم الفطرة هو الذى اعتنق رسالة موسى ، وقرر أن يقاوم معه الجبروت ، ومضى مع أحلام المغامرة ينشد مستقبلا أشرف ! .

---

(١) الآية : ٨٣ من سورة يونس .

أما الشيوخ وسـواد اليهود فقد قيد مسـالكهم الخوف ولم يتحمسوا لدعـوة الحرية ! وقد انكشفت خباياهم لما قرر فرعـون ملاحقة الهاربين من بطشه ، وخرج على رأس جيش كبير ليستعيد قوم موسى إلى السجن الذى فروا منه !! .

كانت مطاردة مثيرة ، اليهود يشتدون نحو الساحل عابرين الصحراء الشرقية ، وفرعون وراءهم يريد أن يدركهم . . ويصف الإصحـاح الرابع من سفر الخروج هذا الموقف قائلا : « فلما اقترب فرعـون رفع بنـو إسرائيل عيـونهم ، وإذا المصريون راحلـون وراءهم ، ففـزعوا جدا ، وصرخ بنو اسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى : هـل لأنه ليست لنا قبور فى مصر أخذتنا لنمـوت فى البرية ؟ مـاذا صنعت بنـا حتى أخـرجتنا مـن مصر ؟ أليس هـو الكلام الـذى كلمناك به فى مصر قائلين : كُفَّ عنا فنخـدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية » ؟ .

إن هذا الكلام ناضح بالنذالة والجبن واستمراء الدنية ، والواقع أن الشعوب التى بّرحت بها العلل لا يمكن أن تبرأ من سقـامها بين عشية وضحاها ، إنها تحتاج إلى مـراحل متتابعة وسنين متطاولة من العلاج المتأنى الصبور حتى تَنْقَه من بلائها .

من أجل ذلك قرر المصلحون بعد تجارب مريرة أن الزمن جزء من العلاج . .

وقد رأيت بعد تدبر عميق أن الشعب الإسرائيلى أول أمره لم يتبع موسى عن عزة نفس أو صلابة يقين ، لعله تبعه عن تجاوُب عِرْقى أو تعصب قَبَلى ، ثم استفاد الأخلاق والإيمان فى مراحل متأخرة .

وملاحظة العقل اليهودى ، والتاريخ اليهودى تؤكد هذا الاستنتاج !!

ونحتفظ بهذه النتيجة الآن لنعرف نهاية المطاردة بين فرعـون وموسى ! لقد صوَّرها القرآن الكريم فى هذه الآيات ﴿ **فلما تراءى الجمعان قال أصحاب مـوسى : إنا لمدركون ! قال : كلا ، إن معى ربِّى سيهدين فأوحينا إلى مـوسى : أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان**

كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثَمَّ الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين﴾ [١] .

إن الله لم يخذل نبيه ، بل سانده بقدرته الخارقة ، ولم يترك الجبابرة ليستأنفوا فسادهم فى الأرض ، بل أخمد أنفسهم بضربة ما توقعوها قط .

ونظر بنو إسرائيل فوجدوا أنفسهم سالمين على الشاطئ الآخر ، كما أحسوا أن قتلة الأمس قد طاحوا ، فلا عدوان عليهم بعد !! . .

فبماذا استقبلوا هذه النعماء الغامرة ؟ وماذا فعلوا لمسديها الجليل ؟

لقد تيقظت فى أنفسهم الوثنية ، وأعجبتهم عبادة الأصنام ! فتقدموا إلى نبيهم فى بلادة هائلة ليجعل لهم صنما ! قال تعالى **﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة ! قال : إنكم قوم تجهلون ، إن هؤلاء متبَّرٌ ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ، قال : أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾** [٢] .

وأى فضل أعظم مما تم ؟ أن يرثوا الأرض ، ويغلبوا العدو ، ويُمنَحوا فرصة السيادة ؟ بيد أن شيئًا من ذلك لم يغير خِسَّتَهم إن أثقالهم النفسية حطَّت بهم فى مكان سحيق . .

وجاء الاختبار التالى ، فإن الله لم يكلف اليهود بمحاربة فراعنة مصر - ومحاربة الطغاة مطلوبة حيث كانوا - إلا أن الإسرائيليين كانوا أقل وأذل من ذلك ، لقد كلفوا بمحاربة الجبابرة الذين يسكنون فلسطين ، وَوُعدوا بأنهم فى هذه الحرب سوف ينتصرون . . .

وجزع اليهود لهذا التكليف ، ولم يُطمَئنهم هذا الوعد !! إنهم أحرص الناس على حياة ،

---

(١) الآيات : ٦١ - ٦٦ من سورة الشعراء .

(٢) الآيات : ١٣٨ - ١٤٠ من سورة الأعراف .

وهيهات أن يعرِّضوا أنفسهم لخطر ! كيف يُطلب منهم قتال ؟ .

يقول لى الأمير بغير جرم   تقدم ! . حين جَدَّ بنا المراس !
فما لى إن أطعتك من حياة   وما لى بعـد هـذا الرأس !

جاء فى القرآن الكريم على لسان موسى ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين قالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها** ﴾ (١) .

ووصف التوراة حال الشعب اليهودى عندما سمع هذا التكليف فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت ! وبكى الشعب تلك الليلة ، وتذمر الشعب على موسى وعلى هارون ، وقال لهما : ليتنامتنا فى أرض مصر ! أو ليتنامتنا فى هذا القفر ! لماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف ؟ .

وكان لابد من قرار إلهى قاطع . .

إن هذا الشعب محتاج إلى تربية طويلة الآماد ، تكبح جماحه وتقتل رذائله ، وتفتح بصيرته على لون آخر من الحياة الرفيعة ، والإيمان بالله واليوم الآخر . .

فلتكن سيناء مصيدة محكمة الجدران يضطرب داخلها ، ويعيش وراء حدودها لا يعرف أحدًا ولا يعرفه أحد ، وليبق على تلك الحال أربعين سنة ! .

أربعين سنة يهلك فيها الذين شاخوا فى الفساد ، ويتدبَّر أمره فى سجنها الطويل مَنْ عاشوا لا يفكرون إلا فى مآربهم ! وستنضج خلالها الذرية التى آمنت بموسى ، وتبلغ مرتبة الرجولة التى تتصرف فى نفسها وفيما حولها . . .

أربعين سنة يخرس فيها من كانوا يهمسون بالحق فتكمَّم أفواههم ! .

إن الأفراد المدمنين للمخدرات يحتاجون إلى مستشفيات تفنى فيها عاداتهم السيئة وتحيا

---

(١) الآيات : ٢١ ، ٢٢ من سورة المائدة .

فيها عـادات جديدة تصحّ بها أجسـامهم وأعصابهم ، فكيف بـأمم تواضعت على تقـاليد رديئة وأعراف فاسدة ؟ .

إن هذه الأمم محتـاجة إلى جوٍّ جديد تتنفـس فيه هواء أنقى ، وتسمـع فيه إلى دعاة الحق وهم يهدونها سواء السبيل . .

وقد طالت المدة على بنى إسرائيل فى سيناء ! مـات فى هذه الفترة موسى وهارون ، وتركا وراءهما شعبا يتولى القدر تأديبه ، ويتدرج بشتـى الوسائل على رفع مستواه . . ولم يكن من هذا بدٌّ ، إن الأمــم لا تترك السفوح إلى القمم بكلمة عـابرة من واعظ مخلـص ، أو مدرس بصير ، الزمن جزء من العلاج .

استوقفتنى فى هـذا المعنى فكاهة ذات مغزى : قيـل إن ثعلبا جائعًا انطلـق يبحث عن طعام ، فرأى من سرداب طويل إناء مشحونا بما لذَّ وطاب ، فوثب داخل السرداب الضيق وتلطف حتـى بلغ الإنـاء ثم أخذ يكـرع منه حتـى امتلأ ، وحاول العـودة من حيـث جاء فعجز، لأن بدنه انتفخ فما يستطيع التقهقر ! ولقيه فى محبسه هذا ثعلب عجوز عرف القصة مـن بدايتهـا ، فقـال للثعلب الصغير : ابـق فى مكانـك هـذا حتى تجوع وتعطـش وتخفَّ وتنحف ، وعندئذ تقدر على الخروج ! قلت ضاحكا : الزمن جزء من العلاج . .

لكن ما تكون عليه حال الدنيا خلال هذا الـزمن المفروض ؟ إن الجبارين الذين أُمِرَ بنو إسرائيل بمقاتلتهـم سيبقون مفسدين فى الأرض ينشرون فى أرجائها الكفـر والذل ، سيبقون كذلك عشرات السنين ! فكيف ترضى الأقدار بهذا العوج ؟ .

وأجيب : لابد مـن وارث شريف للحضارة المعتلة ! وإذا كان حملة الـوحى الإلهى ليسوا أهلا لهذه الوراثة فهيهات أن يقودوا . . سواء حملوا التوراة أو الإنجيل أو القرآن . .

وقد تنبأت بـأن المدنية الحديثة سوف تبقـى عصرا آخر لا أدرى مداه ، سوف تبقـى مع كفرها باليوم الآخر ، ونسيانها الوضيع لله ، وظلمها للضعاف والملوَّنين ، وتَهتُّكِها فى طلب الشهوات بكل وسيلة .

لماذا ؟ لأن حملة الوحى يفقدون من الناحيتين الفكرية والنفسية مؤهلات القيادة ، بل أعرف - وأنا عربىٌّ أعيش بين العرب - أن لدينا رذائل من نوع آخر لا تقل عن رذائل المعطلين والمثلثين ، يستحيل معها أن نكون أهلا للصدارة ، بل يستحيل معها أن يقع زمام القافلة البشرية فى أيدينا . .

إن فساد المبتعدين عن الله ، الجاهلين بحقوقه ، سوف يعلَّلُ بأنهم لا إيمان لهم . .

أما فساد المتدينين فإنه يرتدُّ إلى الدين نفسه بالنقض ، ويجرّ عليه تهما هو منها براء ، فحكمة الله واضحة فى تأخير المتدينين الجهلة وحرمانهم من السلطة .

والأمة الإسلامية منذ بضعة قرون تتدحرج إلى أدنى ، والمصلحون الذين هم شهداء عليها يوم القيامة لا يلقون منها إلا عنتا ، وقد فقدت فى أثناء هذا التدحرج أمرين جليلين :

أولهما الشمائل الإسلامية التى اختصت بها الرسالة الخاتمة .

والآخر الملكات الإنسانية التى تتمتع بها الشعوب الراقية ، والتى تجعلها سبّاقة فى ميادين الحياة المادية والأدبية . .

أذكر أنه جاءنى يوما أحد الدعاة فى حال من الغضب الشديد يقول لى : أترى إلى حكومتنا وهى تدعو إلى تحديد النسل ؟ يجب أن تنضم الينا فى محاربتها !

قلت له وأنا متثاقل : إن التحديد المقترح لا يحل المشكلة القائمة ! ان المشكلة تكمن فى عدم وجود الإنسان السوىّ ، والمجتمع الناشط .

قال لى : ان تعاليم الإسلام هى تكثير النسل . . قلت . . له : نعم وله تعاليم أخرى فى تكبير الشغل ! قال : ماذا تعنى ؟ قلت : لماذا تريد الزواج والنسل الكثير على أن يقوم غيرك بالإنفاق على زوجك وولدك ؟ إنكم لا تعمرون الأرض وتثيرونها كما أثارها غيركم وعمّروها ، إنكم لا تستخرجون خيرات الأرض من خباياها وظواهرها كما استخرجها غيركم من أنحاء البر والبحر!! .

إنكم بدوافع الرغبة الحيوانية تصيحون فى طلب الزواج والأولاد ، وتطلبون الكثير الكثير، فعلام يدل هـذا ؟ على أن العقل الإسلامى يعـرف رغبته ويسمع صوتها ، ولكنـه لا يعرف واجبه ولا يلبى نداءه ! .

ثم استتليت : لا الشعب يدرى ، ولا السلطة تدرى ! ظلمات بعضها فوق بعض !! .

إن المثال السابق سقته إثر واقع عرض لى وأنا أكتب الآن ، وهو يخدم الفكرة التى أريد إبرازها ، وهى أن علل الأمم لا تداوى بالارتجال السريع ، والرغبة النزقة .

والشبان الـذين يظنون الإسلام يمكـن أن يقوم بعد انقـلاب عسكرى أو ثورة عامـة لن يقيموا اسـلاما إذا نجحـوا ! فإن الـدولة المحترمـة وليد طبيعـى لمجتمع محترم ، والحكـومة الصالحة نتيجـة طبيعية لأمة صـالحة ! أما حيث تتكّون شعـوب ، ماجنة وضيعـة فسيتولى الأمـر فيهـا حكـام مـن المعـدن نفسـه ﴿ **وكـذلك نـولِّ بعض الظـالمين بعضـا بما كانـوا يكسبون**﴾[١] .

والاتجاه إلى الجماهير لغـرس العقائد وتـزكية الأخـلاق و إنشاء تقـاليد شريفـة ، و إقامـة شواخص مـاجدة ترنو إليها البصائر ، و إقـامة الصلاة جماعة بعد جماعة ، أعنـى وقتا بعد وقـت مـن الفجر إلى العشـاء ، وتحصين الـرجـال والنسـاء ضد الانحـراف والانحـلال ، والتغلغل فى الأسواق والميـادين والمنظمات والنقابات لإحياء كلمات الله و إنفـاذ وصاياه . . ذلك كله كان طريق الأنبياء وحوارييهم ومن نهج نهجهم . .

ولم تقع معركتا بدر والفتح إلا بقدر أعلى انساق إليه المسلمون دون خطة سابقة أو إعداد مبيَّت . . !! .

أعرف أن عددا من الحكومـات مرتدٌ عن الإسلام يقينا ، وأنه لن يـدّخر وسعا فى مقاومة المدّالإسلامى وفتنة أهله ، وعلاج ذلك يتم بالتزام الخطّ الذى رسمه الأنبياء ، والصبر على

---

(١) الآية : ١٢٩ من سورة الأنعام .

لأوائه وضرائه ، فهو - وإن طال المدى - أقصر الطرق إلى الوصول ، وأولاها برعاية الله ، وأبعدها عن الأطماع والشبهات . .

ولا نحسبن هذا الخط أبعد عن المخاطر وأقرب إلى السلامة ، إنه صعب التكاليف ثقيل الأعباء . وقد رأيت أعداء الإسلام يرقبون هذا الخط بحذر ويرون أصحابه هم الأعداء الحقيقيون لهم .

إن قصة خدمة الإسلام عن طريق الانقلابات والثورات راودتْ أناسا لهم إخلاص وليست لهم تجربة ، ولم ننجح من سنين طويلة هذه المحاولات ، ورأيى أنها لو نجحت فإلى حين ، ثم يبدأ الجهاد لتنظيف الشعوب من أقذائها ، وإحداث تغيير جذرى فى أخلاقها وعاداتها ! أى أننا سنرجع إلى الإصلاح الشعبى عن طريق الشعب نفسه لا عن طريق الأوامر الرسمية .

لست أنكر قيمة السلطة فى اختصار المسافة ، وإقرار المعروف ومحو المنكر ، وإنى أعلم أن الدولة جزء من الدين ، وأن أجهزتها الفعالة جزء من شُعَب الإيمان السبعين . .

وكون الحكم من شعائر الإسلام حقيقة لا يمارى فيها إلا جاهل أو جاحد . . . ! .

وهذا كله لا يلغى ولا يوهن عمل الأمة نفسها فى تثبيت العقائد والأخلاق والعادات الحسنة ، وفى إعلاء سلطان الضمير وتتبع مسارب السلوك الخفية والجلية ، وفى فرض رقابة دقيقة على أجهزة الحكم ، وإبطال شرعيتها إن هى نسيتْ وظيفتها أو جاوزت حدودها . .

إن الدولة فى الإسلام صورة ظاهرة لباطن الأمة ، وهى يدها التى تحقق بها ما تبغى ، وقدمها التى تسعى بها إلى ما تريد . .

بيد أن ضراوة الطباع البشرية السافلة قلبت هذا كله رأسا على عقب ، وأمكنت ناسا من عبيد ذواتهم أن يفهموا الحكم على نحو آخر ، إنهم لم يفهموه عبادة لله بل سيادة على الآخرين ، ولم يفهموه أمانة ثقيلة العبء بل فهموه مغنما لذيذ الطعم ، وتطاولت هذه

الحال على الأمة المنكوبة فأصابها من الضياع ما أصابها . . . .

كان رسول الله ﷺ يعلم أن وضع قريش بين القبائل العربية جعل الأنظار تتطلع إليها ، ويجعلها مرشحة أكثر من غيرها لتولى السلطة ، فأحب أن يشعرها بما لها وما عليها لترغب وترهب ، روى أحمد فى مسنده عن أبى موسى الأشعرى قال : « قام رسول الله على باب بيت فيه نفر من قريش ، وأخذ بعضادتى الباب ، فقال : هل فى البيت إلا قرشى ؟ فقيل : يا رسول الله غير فلان ابن أختنا ، فقال : ابن أخت القوم منهم ! ثم قال إن هذا الأمر فى قريش ما إذا استرحموا رحموا ، وإذا حكموا عدلوا ، وإذا قسموا - يعنى المال - أقسطوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل » أى لا تنفعه توبة ولا فداء .

وقد قامت لقريش دولة بل دول فى المشارق والمغارب ، فهل راعت شروط الاستخلاف ، أم جرّت على الإسلام وأمته المتاعب . . ؟ .

لقد لبث الحكم فى أيدينا أحقابا ، فلما لم تحسن الأمة الإفادة منه فى دعم رسالتها ورفع رايتها ، انتزعه الآخرون منها ، وها هى ذى تلهث لتستعيده .

وهو إن شاء الله عائد إلينا طال الزمان أو قصر ، غير أنه لن يعود حتى تختفى من بيننا أوهام كثيرة فى فهم معنى السلطة ، وحتى ترقى أمتنا ماديًا ومعنويا فتكون الدولة فى يدها لخير الجماهير لا لإرضاء فرد مغرور . .

إن فن الحكم فى العالم المعاصر قد ارتقى إلى أوج بعيد ، وفى انجلترا مثلاً يستطيع عامل فى أحد المناجم أن يجابه الحكومة دون أن تخالجه ذرة من قلق ! وقد ينتصر أو ينهزم فلا يزيده نصر ولا تنقصه هزيمة ! .

ولو وقع ذلك فى بعض الدول الإسلامية لأمر الحاكم بقطع عنقه ، ولمرّت الدهماء على جسده الملقى يقولون : ما دخلُك يا صعلوك فى سياسة الملوك ؟ .

إن الشعب والحكومة معا دون مستوى الإسلام الذى ينتمون إليه ، بل هم والحق يقال عار عليه ! لقد اختفت تحت أطباق الثرى تقاليد الخلافة الراشدة ، وبقيت فى العقل الباطن للدهماء تقاليد السلاطين الذين هم ظل الله فى الأرض ، وفتاوى العلماء الذين تواصوا بقبول الأمر الواقع ، أو بالتعبير الفقهى الخضوع لمن نالوا الحكم بالغلبة والقهر . . ! .

ثم كان من احتاك المسلمين بغيرهم من أهل الأرض ، أن ظهرت وطبقت فلسفة الديمقراطية ، ورأى من لهم فقه وتقوى أنها قرية من « الشورى الإسلامية » فكيف انتقلت إلينا « ديمقراطية » الغرب ؟ . .

إن الحكم الفردى صالح بينها وبين رغبته ، ويستطيع الحاكم « المهم » فى بلاد الإسلام أن يظل عشرات السنين ، يُنتخب هو وحده لا غير ، عشر مرات أو أكثر ما دام حيا . . ويقول هذا الحاكم للمتدينين هذه هى الشورى التى تنادون بها ، ويقول للناس من وراء الحدود ، أنا وليد انتخابات حرة ، وإرادة شعبية .

والأرض والسماء يعلمان أن هذا كذب وزور . .

والأمر يحتاج إلى تغيير جذرى كما قلنا فى كيان الأمة وعقلها وضميرها حتى لا تمر هذه المهازل أبدا . .

ويضحك أولو الألباب ومن حقهم أن يبكوا عندما يسمعون متحدثا باسم الإسلام يصحح هذه الأوضاع ! .

هل تحتاج أمتنا إلى أربعين سنة تصحُّ فيها كما احتاج بنو إسرائيل ؟ لا أدرى ! كل ما أقدر على قوله أن الإسلام لا يقبل حكما عسكريًا ، ولا يعرف خرافة : « الناس قلوبهم مع الحسين وسيوفهم مع يزيد » وأن على دعاة الإسلام من خلال تعاليمه لا من خلال تقاليد عصور الانحطاط والفوضى فى تاريخه المديد .

عليهم أن يعدُّوا قتيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شهيدًا أغر الجبين لا صعلوكا يقاوم السلاطين ، فإنهم بهذا المنطق الجبان لن يكونوا مسلمين ! ولن يصلحوا لقيادة أنفسهم بَلْهَ أن يقودوا العالمين . . ! .

وصلة الاقتصاد بالسياسة وثيقة ، ومراقبة سير المال بين جماهير الناس لابد منها ، وتحديد موقف الحاكم من المال العام شارة كل دولة محترمة .

وقبل أن نشير إلى ما يقع فى بلادنا الإسلامية نريد أن نثبت نموذجا من الخلافة الراشدة يوضح طبيعة الحكومة الإسلامية والسمة البارزة لحياة الحاكم المسلم .

كان عمر بن الخطاب مرموق المكانة فى الجاهلية والإسلام فلما ولى الخلافة ، واتسعت رقعة الدولة فى عهده ، وورث ملك الأكاسرة والقياصرة ، لوحظ عليه أنه حريص على استصغار شأن نفسه سرا وعلنا ، وعلى توكيد أنه رجل لولا فضل الله ما كان شيئًا يذكر . . !! .

كان عمر مع قافلة من الناس يمرّون بشعاب « ضجنان » - جبل قريب من مكة - فسُمِعَ يقول : « لقد رأيتنى فى هذا المكان ، وأنا فى إبل للخطاب وكان فظاغليظًا أحتطب عليها مرة ، وأختبط عليها أخرى ، ثم أصبحت اليوم يضرب الناس بجنباتى ليس فوقى أحد ! ثم تمثل بهذا البيت :

لا شىء فيما ترى إلا بشاشته | يبقى الإله ويفنى المال والولْد!

وخرج عمر يومًا حتى أتى المنبر فشوهد عليلا ، وكانوا قد وصفوا له عسل النحل ، وفى بيت المال عُكَّة ـ آنية صغيرة ـ فقال للناس : إن أذنتم لى فيها أخذتها ، وإلا فإنها علىّ حرام ، فأذنوا له فيها . . !! .

وكان عمر يؤكد أنه ما قبل الخلافة إلا رجاء أن ينهض بها لا يقدر غيره على النهوض به ، ولولا ذلك لنأى عنها ، وفى ذلك يقول : « ليعلم من ولى هذا الأمر من بعدى أن سيُريده عنه القريب والبعيد ، وإنى لأقاتل الناس عن نفسى قتالا ! ولو علمت أن أحدًا من

الناس أقوى على هذا الأمر منى لكنت أن أُقدَّم فيضرب عنقى أحب إلىّ من أن أتولاه . . .

وقال عمر للناس يوما : « أنا أخبركم بما أستحل من مال المسلمين ! يحلّ لى حُلّتان ، حُلّة فى الشتاء وحلة فى القيظ ، وما أحجّ عليه وأعتمر من الظهر ، وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم . . ثم أنا بعدُ رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم » .

ورووا أن الربيع بن زيادة الحارثى وَفَدَ على عمر بن الخطاب فأنس إليه عمر وأعجبته هيئته ، فشكا إليه عمر طعاما غليظا أكله فقال الربيع : يا أمير المؤمنين ، إن أحق الناس بطعام ليّن وملبس ليّن لأنت ، فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه ، وقال أما والله ما أراك أردت الله بمقالتك ، ما أردت إلا مقاربتى ! ويحك ، هل تدرى ما مثلى ومثل هؤلاء - جماهير الناس - ؟ .

فقال الربيع : ما مثلك ومثلهم ؟ قال عمر : مَثَلُ قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم وقالوا له : أنفق علينا ! فهل يحلُّ له أن يستأثر منها بشىء ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين قال : فكذلك مثلى ومثلهم . .

ثم قال عمر : إنى لم أستعمل عليكم عمّالى ليضربوا أبشاركم [1] وليشتموا أعراضكم ، و يأخذوا أموالكم ! ولكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم .

فمن ظلمه عامله [2] بمظلمة فلا إذن [3] له علىّ ليرفعها إلىّ حتى أقصّه [4] منه ! فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدّب أمير رجلاً من رعيته أتُقصُّه منه ؟ فقال

---

(١) جلودكم .

(٢) رئيسه أو أميره .

(٣) يجيئنى توًّا ليبلغنى شكواه .

(٤) أقصّى بضم الهمزة وتشديد الصاد آخذ له الحق من الذى اعتدى عليه .

عمر : وما لى لا أَقِصُّهُ منه وقد رأيت رسول اللـه ﷺ يُقصّ من نفسه ؟ وكتب عمر إلى أمراء الأجناد : لا تضربـوا المسلمين فتذلـّوهم ! ولا تحرمـوهم [1] فتكفروهم ! ولا تجمـَّروهم [2] فتفتنوهم ، ولا تنزلوهم الغياض [3] فتضيعوهم ! .

تلك علاقة الشعـوب بحكامها فى تعاليم الإسلام ، وقـد نكبت الجماهير فى أقطار عدة برجـال مترفين استباحوا الضعفـاء ، وأذلوا من أعـز الله ، وأعـزوا من أذلّ الله ، فقـامت عليهم ثورات مُخْنَقَـة ركب مَوْجَتَها شبانٌ مغـامرون باسم الاشتراكية التـى تنصف الشعوب وتحقق العدالة الاجتماعية ، فماذا كان ؟ .

دخلت الشعوب فى محن متتابعة أفقدتها دينها ودنياهـا معًا ، وأنزلت بها هزائم عسكرية وسياسية كست الوجوه بالقار والعار ! .

رفع أولئك المغامرون شعار العروبة بعـد تجريدها من الإسلام ، واتباعها المذاهب المغيرة على بلادنا مـن الشرق الشيوعى أو الغرب الصليبـى ، وأكْرِهَتْ الجماهيرُ إكراهـا على قبول الشعار الجديد .

وكان بـالقادة الجدد جـوعٌ شديد إلى الظهـور والعظمة ، كما كان بهم جـوع إلى الرفـاهة والبذخ فإذا قصورهم تترع بالملذات وأهلوهم يمرحون فى فنون من الوجاهات والمتع . .

ولما كانوا خالين من المواهب الرفيعـة والتجارب المفيدة ، فقد أساءوا النقل والاقتباس ، وزعموا أنهم سوف ينهضون بالبلاد صناعيا ، فأضاعوها زراعيًا وصناعيًا . .

وكانـت نتائج انقطاعهـم عن الله ، وجهـالتهم بـالحياة ، أن خذلتهـم قوانين الأرض

---

(١) تجيعوهم ، وتنغصوا عيشهم .

(٢) لا تجعلـوا الجنود يبتعـدون عن نسـائهم مـدة طويلـة فى ميـادين القتـال فإن ذلـك يغريهم بـاقتراف الفواحش ! .

(٣) وقد أثبت هذا النص فى كتابى « الإسلام والأوضاع الاقتصادية » فى سياق مهم .

وبركات السماء فإذا العرب والمسلمون يقعون فى ورطات رهيبة وتجتاحهم هزائم مُذِلّة فى كل ساحة .

وما عسى أن يفعل القدر لرجل يخطب فى الحشود المسوقة إليه فيقول وهو يعبث بين أصابعه بقلم : ماذا فعل محمد للناس ؟ محمد (!) هكذا يُذكر صاحبُ الرسالة العظمى(!) وتصورت مَعْزَة خرجت من مربضها لتقول للشمس : اغربى إنك ما تصنعين للكون شيئًا . . . !! .

وزعيم آخر نسى كل النسيان أنه كان فى طفولته يجرى وراء جحاش القرية ثم صيرته الاشتراكية زعيما فإذا هو لا يمتطى فى تنقلاته إلا الطائرات السمْتية كِبْرا عن أعظم السيارات .

وآخر ، وآخر . . . ما أكثر الأصفار التى ظنت نفسها ألوفا فى أرض الإسلام اليتيم ! .

والجماهير تنظر فى بلاهة ، وقد حبسها فى موقفها السلبى حب الدنيا وكراهية الموت وإرخاص الحق وعشق الشهوات . . .

إن رسالتنا الكبرى قاعدتُها أمة مؤمنة بها حريصة عليها وأداتها الأولى جهاز الحكم فيها وقد تكون الأداة قاصرة ، أياما أو شهورًا ! أن تكون الأداة مضادة لرسالة الأمة منسلخة عن وحيها ، والأمة نفسها لا تعى ولا تتحرك ، فالأمر يتصل بالقاعدة نفسها . . . ! والإصلاح الأول لا يتجه إلا إليها . . .

من أجل ذلك أهيب بالإسلاميين أولى الغيرة على دينهم ألا يضيعوا وقتا فى جدال ، وألا ينخدعوا عن فساد الموضوع بفساد الشكل ، وأن يتجهوا إلى أمتهم ذاتها يعالجون عشرات العلل الكامنة والوافدة التى تنخر فى كيانها وتباعدها عن كتاب ربها وسنة نبيها .

إن الحالمين بانقلاب عسكرى يجب أن يستقيظوا وإلا كانوا هم أنفسهم قسما من المرضى! لقد تدبرت أحوال دول ما تزال تعبد الأصنام فوجدتها وصلت إلى حد الاكتفاء

الزراعـي ، وقفزَت إلى الصناعـات الألكترونية ، وفجرت القنبلـة الذرية ، واستقـرت فيها الأنظمة الـديمقراطية ، ورجعـت البصر إلى أمتي فوجـدتها دون ذلك كله ، فـازداد حسّي بخطورة ما انتهينا إليه ! .

بل لقد تأكد لدى أن الحضارة الغربية - بشقيها المتنافرين - قد تبقى عصرًا آخر لا يعلم إلا الله مداه ، مـا بقى المسلمون رسميًا وشعبيـًا على هذا المستوى من الإسفـاف فى نواحى حياتهم الفردية والاجتماعية . . ! لأنهم لن يصلحوا بديلاً لوراثة الأرض ! .

إن الـدين كما درستـه فى كتـاب ربى إيمان وإصـلاح لا نفاق وإفسـاد ! ألا تقـرأ قولـه تعـالى﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾ [1] .

ما أحلى شعار الحكم بما أنزل الله . .

هـل تحكـم بما أنزل اللـه فى نفسـك ؟ وفى بيتـك ؟ ، وبين جيرانك وإخـوانـك ؟ وفى عملك . . ؟ .

لقد تقلبـت بين طوائف كثيفة ، وبلـوت الكبار والصغـار ، فشعرت أن الناس عنـدما يتخلّون عن مشاعر الحب والرحمة ، وتستبدّ بهم نوازع الأثرة والتكاثر ، يتحولون إلى وحوش مرهوبة الفتك ! .

أين كلمة الرسول : « لن تؤمنوا حتى تحابّوا » ؟ إن فقدانها لا يسدُّ مسدَّهُ شىء ، وشرائع الحدود والقصاص مـا منها بُد ! بيـد أنها لا تغنى أبدا عـن شرائع الأخلاق وتقاليـد الحنان والأدب والرفق . .

والحكومات تستبعد من عالم القانون نصوصا دينية لا ريب فيها لأن الصليبية والشيوعية قررتا إماتة هذه النصوص ، وسوف تعترضان محاولات بعث الحياة فى هذا التراث . . !! .

---

(١) الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ من سورة الأنعام .

حسنا ، فهل يتحقق الإسلام عندما يطبق المسئولون فى العالم الإسلامى هذه الشرائع ؟ إن الذين جاءوا بطريق غير إسلامى لن يحسنوا الحكم بما أنزل الله ! والذى سرق منصبه بطريق التزوير أو الاغتصاب لن ينصف الإسلام يوم يقطع يد لص صغير ، كل ما حدث أن اللص الكبير قطع يد لص ضعيف . .

الإسلام كلٌّ لا يغنى بعضه عن بعض ، والحكومة فيه إفراز طبيعى لأمة مؤمنة ، أمة اختارت الأكفأ والأصلح ، وائتمنته على دينها ودنياها ، ووضعته تحت رقابتها ، ولها حق مطلق فى تنحيته يوم تشاء . . ! .

الشعوب الطبيعية عرفت ذلك ونفذته جزءا من منطق الفطرة ، أعنى منطق الإسلام ، وهل الإسلام إلا الفطرة السليمة ؟ .

إن غيرنا أقرب إلى تعاليم الإسلام فى مجال الحكم ، وإن كان بعيدًا عنه فى مجال الاعتقاد ! .

يعلم الناس أن مستر « تشرشل » هو بطل انجلترا وكاسب النصر لها فى الحرب العالمية الثانية ، وحقه على قومه كبير ، لكن قومه رأوا غيره أقدر منه فى أيام السلام وأجدر بالوزارة فأبعدوه دون حرج ، وذهب الرجل إلى بيته دون ضجة . .

وكذلك جنرال « ديغول » الذى مسح العار عن وطنه فى أيام كالحات ، وقاد فى المنفى حرب مقاومة انتهت بالنصر ! لقد قال له الفرنسيون يومًا : جنرال لُمّ ورقك واترك منصبك فكان الرجل أسرع من البرق فى جمع أوراقه والانطلاق إلى قريته .

ولو فكر أحدهما فى الخروج على مشيئة أمته لما وجد خادمًا يقدم له الطعام ، بل ما وجد من يبيعه الخبز ، ذاك لو بقى حيًا ! .

أما فى البلاد التى يعيش فيها مليار عربى ومسلم فللوثنية السياسية منطق آخر .

يقول القائد اليهودى « مردخاى » : « إن النصر الذى تم لنا فى حرب الأيام الستة فاق أشد الأحلام جنونا » وهذا حق ، فقد كسب اليهود أرضا ومالاً وجاها تتجاوز الخيال دون

خسائر تـذكر ، لم تكن حربـا هذه الروايـة التى وقعت ! إن القـادة العرب قدموا جنـودهم لجزار لا تكل يداه من الذبح ، وعندما تعب من التنكيل بخصمه ساق البقية أسرى !! .

ثم ماذا ؟ رجع القـادة المدحورون المعصوبون بالخزى يقولون فى وقاحـة لم يعرف التاريخ لها نظيرًا : هذه نكسة ! المهم أننا نحن بقينا . . ! .

ثـم ماذا أيضًـا ؟ انتظروا مـن الجماهير أن تهتف بـأسمائهـم وأن تقدم لـذواتهم المصونـة الولاء . . ! .

وتم لهم مـا انتظروه ! قـادة النصر فى الغرب تستبدل بهم شعـوبهم من تـراه أفضل لها ، وقادة الهزيمة هنا يبقون جاثمين على صدر الأمة حتى يوردوها القبور . . .

ولا أزال أستغرب الصمت الذى يحف قتـل عشرات الألوف من المسلمين فى حماة ثم فى طرابلس - لبنان .

لئن كـان القتل جريمـة شنعاء إن هذا الصمـت الجبان جريمـة أشنع لكن هـذه نتائج الموت الأدبـىّ . . ومـازلـت أؤكـد أن العمــل الصعـب هـو تغيير الشعـوب ، أمـا تغيير الحكومات فإنه يقع تلقائيًا عندما تريد الشعوب ذلك . . ! .

إن علل أمتنا غليظة ، وإذا لم ينشغل دعاة الإصلاح بعلاجها فبم يشتغلون ؟ .

هناك تقاليد انحدرت إلينـا من ماض طويل ، ما أنزل الله بها مـن سلطان ، ثم جاءنا الاستعمار العسكرى والثقافى بتقاليد أخرى هى مـن مباذل الغرب وهَناته ، ربما كان محصّنا ضدها أو قليل التشكّى منها ، لكنها لما جاءتنا كانت بالغة الضرر . .

هذه التقـاليد وتلـك ، اعوجّـت بفكرنـا وسلوكنـا على سواء ، وأكـاد أقول : إننـا بهذا الاعوجـاج نشبه بنـى إسرائيل قبـل أ ن يُعاقبوا بـأيام التيـه ! أو نشبههم عنـدما تمردوا على الوحى ، ولُعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم . .

وما خلت الأمة على تطـاول القرون من مذكر بالحق وداعٍ إلى الخير ! والـذى ألفت النظر إليه أن التغيير الحاسـم لا يتم ارتجالاً ، ولا يتـم بين عشية وضحـاها ، ويجب أن يتجـرد له

رجال لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولا تخلع قلوبهم رهبة أو رغبة ، يمشون فى الطريق الطويل الذى سار فيه الأنبياء ، ولا يفكرون فى انقلابات عسكرية أو ثورات مسلحة ، إنما يفكرون فى الإصلاح المتأنى ، والتغيير الذى جزم القرآن الكريم بنتائجه قال ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (١) .

وهناك من يطلب السلطة لتكون بين يديه أداة التغيير المنشود ! .

وأكره أن أتهم نية هؤلاء أو نهجهم ، فقد عشت معهم ومازلت بينهم ، ووجهة هؤلاء الرجال أن الحكم فى أرض الإسلام منحرف من زمان بعيد ، وهم يتساءلون : ما الشرعية التى يعتمد عليها هذا الحكم ؟ الحكومات المدنية تستند فى مشروعية بقائها على أنها تمثل الشعب ، والحكومات الدينية تستند إلى أنها تطبق الدين ! .

فإذا لم يكن ثمَّ تمثيل للشعب ولا تحكيم للدين فأين مشروعية البقاء ؟ والنزاع الدموىّ الطويل الذى شجر بين الفريقين يرجع إلى التنافر الحقيقى بين الأمر الواقع وطلاب التغيير! .

وأنا أدعو هنا إلى سياسة جديدة فى خدمة الإسلام ، وبناء أمته التى تتواثب حولها شياطين الإنس والجن تكفينها والخلاص منها .

ودعوتى أساسها الاستفادة من التجارب الطويلة ، والنظر الدقيق فى الأسلوب الذى سار عليه رسل الله ، وخاتمهم العظيم محمد بن عبد الله ، الذى دعا إلى الحق ، وتنزه عن كل مأرب ، وأمَّنَ أهل الدنيا على ما بأيديهم﴿ **قل : ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إنْ أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد** ﴾ (٢) .

وقد لاحظت فى أثناء الصراع القاسى بين الإسلاميين وغيرهم من الحكام ، أن أغلب

---

(١) الآية : ١١ من سورة الرعد .

(٢) الآية : ٤٧ من سورة سبأ .

الذيـن يملكون الأمـور يمضون مع تيـار السلطة وينغمسـون فى عبابـه نغماس السمك فى الماء! .

أى أنهم يحسّون أن الخروج منه انتقال إلى الموت ، فهم يدفعـون عن حياتهم ، ويرون من يحاول استلاب السلطة منهم قاتلا ، يجب الإجهاز عليه قبل أن يجهز عليهم ! .

وشىء ثان أن ظنهم سيئ بالإسلاميين ، فهم لا يرونهم أصحاب مبادئ بل أصحاب مطامع ، وأن مغانم الحكم هى التى تحركهم ، فلماذا تترك لهم ؟ .

والشىء الثالث الخطير أن بعضهم يجهل الإسلام جهـلاً بسيطًا أو مركبًا بل لقد رأيت فى سياحاتى بـالعالم الإسلامى من يكره الصلاة والعفاف أكثـر من كره الشيوعيين والصليبيين لهما . . !! .

ويفرض هـذا كله على الدعاة التجـرّد التام وهـم يـرفعون راية الإسلام ، وأن يعلنـوا بقوة عزوفهم عـن الحكم ورفضهم لمناصبه ، وإيثـارهم أن يقوم غيرهم بمهمـة التطبيق والتنفيذ وتأييدهم القوى لمن يسارع من الحكام إلى العمل بالإسلام . .

وليسـت مهمـة الدعـاة تلمُّس الأخطـاء وكشـف أصحابها ، ولا أن نتحـوَّل إلى نقـاد سياسيين يشغلنا الهجاء عن البناء .

الذى أراه أن نكدح فى الميادين الداخلية لنعيد بناء أمة تـوشك أن تتحول إلى أنقاض ، وما أكثر هذه الميادين وأفقرها إلى العاملين إننا لو انتصرنا فيها ربحنا تسعة أعشار المعركة .

وكل عمـل مقرون بالجهل أو الغلـو يصيب الإسلام فى مقاتلـه ، ويجعل صاحبه ـــ من حيث لا يدرى ـ عونا لخصوم هذا الدين . .

قد تقول : إن السلطات القائمة سوف تمنعنا من هذا العمل ! فماذا ترى ؟ .

وأقول : إن الأنبيـاء مُنعوا من قبل عـن أداء رسالتهم لكنهـم مضوا فى الطريق الطـويل

يتحملون التكذيب والتعويق ﴿ **ولقد كذبت رسل مـن قبلك فصبروا على ما كذِّبوا ، وأوذوا حتى أتـاهم نصرنا ، ولا مبـدِّل لكلمات الله** ﴾ [1] مضوا يبنـون ولا يهدمون ويحسنـون ولا يسيئون ، مضوا فى طريق التوعية والتربيـة والتبصير بالآخرة والاشراف على الحياة الدنيا من مستواهـم العالى ، لا يزاحمون عليها ، ولا يُظـَنُّ بهم طمع فيها ، حتى تخيرّ اللـه لهم مكان النصر وزمانه ، وكان ما قدّر الله !! .

عاش من عاش محققًا رسالته ، ومات من مات مُوَطِّدا عند الله مكانته .

لقد سمعـت شبابـا يشكو طـول هذا الطريـق ، ويهز رأسه رافضـا ، إنه يـريد معـركة سريعة! .

إن ريبتى شديدة فى قلوب هؤلاء أو فى عقولهم ، وأدعو الله أن يقى الإسلام شرهم .

---

(١) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .

الأبعَاد الإنسَانية لِخطَابِ الرسُول فى حجَّة الودَاعِ

عندما أصلى على محمد أشعر بأننى أزجى الثناء الحسن لمن يستحقه ، وأنوِّه بالعبودية الصادقة لمن عاش حياته يرضى ربه ويجاهد فى سبيله ! وأسأل ربى أن يتقبل صاحب هذه الحياة المباركة ويخلد آثاره ، وأن يساعدنى على اقتفاء أثره والاقتداء بسنته . .

وعندما أسلِّم على محمد ، وإخوانه المرسلين أقف على أطلال ماضٍ طويل ، وتاريخ سحيق كان رسل الله خلاله يكافحون الطواغيت ويخاصمون الجاهليات ، وقد سال عرقهم ودمهم وتَغَضنَ جبينهم وتنكّد عيشهم ، ولكنهم صابروا وتحملوا . . وبعد لأى دارت الرحى على الكافرين فحصدتهم ، ونجت العقائد والشرائع ومعالم الوحى الأعلى . وخلصت للأجيال المقبلة كى ينتفعوا بها ، ويحصدوا ما غرس الأولون ! وقيل بعد هذا العراك المرير ﴿ **الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** . . ﴾ [1]وقيل أيضًا ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**﴾ [2] .

إننى عندما أصلى وأسلم على محمد ، أصل نفسى بأشرف ما فى الوجود ، وأثبت خطوى على الصراط المستقيم ، وأرتضى قيادة تحتضن الحق وتؤثر الرشد ، وأعلن أن هَواىَ مع ما جاء به .

إن الصلاة والسلام هنا توكيد منهج وتحمل عبء ، ومشاركة قلبية وفكرية للإنسان

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة النحل .

(٢) الآية : ١٨٠ ـ ١٨٢ من سورة الصافَّات .

حرر الإيمان من الخرافة ، ونقَّى الحق من الشوائب ، وربط الفطرة السليمة بالوحى ، وصالح بين العقل والدين ، وجعل الدنيا مهادًا صالحًا للأخرى . .

إن محمدًا ليس بشرًا عاديا . . إذا كان الناس أجمعون قد خلقوا للعبادة ، فإن محمدا كان النموذج الأكمل للعبودية المستكينة العانية المستسلمة لجلال الله ، وإذا كانوا قد خُلقوا ليظهر أيُّهم أحسن عملا ، فإن محمدًا حلَّق بسيرته فى مستوى ترنو إليه الفلاسفة والأبطال والقادة العظام ثم يتمنون لو أدركوا غباره ، ونضح عليهم سنا منه . . نعم ليس محمد بشرا عاديًا ، وقد درست حياة رؤساء وساسة ومفكرين ورجال سلام ورجال حروب ، وأناس واتتهم الحظوظ فبرزواه وآخرين كبت بهم الحظوظ ففشلوا . . وأُبْتُ بعد هذه الدراسة وأنا أحمل فى نفسى تقديرا خاصًا لمحمد النبى الإنسان ، النبى المربى ، النبى الذى أصلح أخطاء القرون ، وردَّ للعالم عقله الغائب ، وكثيرًا ما أودع تقديرى ذاك فى الصيغة التى أمرن بترديدها صيغة الصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله .

استصحبت هذه العاطفة وأنا أطالع الصحائف الأخيرة من السيرة الناضرة وأتابع الكلمات التى قيلت فى حجة الوداع ، إن الخطبة التى ألقيت فى هذه الحجة لا تستغرق بضع دقائق ولكنها أهم من خطاب يستغرق بضع ساعات ، ولا عجب فصاحبها أوتى جوامع الكلم ، واختصرت المعانى له اختصارًا قوالبُ للحق ، وأوعية للمعانى ، وشفاء لما فى الصدرو ، وذاك حسبهم من الأداء . . .

وليس فى خطبة الوداع شرائع جديدة ، إنها ترديد لأحكام سبقت ، أو تطبيق لأصول تقدمت ، أو تلخيص لما استفاض شرحه ، والمراد تذكير الناس عامة بما قد يحاول الشيطان زحزحتهم عنه أو تنسيتهم إياه . .

وكان الرسول ﷺ يشعر بأنه قارب النهاية ، وأن الأمة التى أنشأها قد تشبثت بظهر الأرض وفرضت نفسها على التاريخ ، وانتقل الأذان مع الرياح الأربع ، وتوزعت جماعات الصلاة على أطراف الزمان ، فهى تلتقى على طاعة الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . . ماذا بقى له ؟ لا يريد لنفسه شيئًا ، صحيح أنه مرسل للعالمين ، ليكن ،

فهؤلاء الذين ربَّاهم سيمدون النور إلى ما بقى من أرض الله ، إن الجيل الذى ربَّاه جزء من الرسالة التى أدَّاها . . .

من أجل ذلك كان يحدَث وفى الوقت نفسه كان يودِّع ، وفى تضاعيف حديثه كان يفرغ كل ما فى فؤاده من نصح وحب وإخلاص .

والعرب قبل غيرهم من الناس أجدر أهل الأرض أن يعوا هذه الوصايا ، فإن النبىَّ الخاتم عانى معاناة طويلة وهو يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويبرئهم من علل يكاد يكون الشفاء منها مستحيلاً ، وعندما صنع منهم بالإسلام أمة جديدة أراد أن تكون هذه الأمة عنوانًا عظيمًا على حقيقة عظيمة ، أى أن دعايتها للإسلام ليست نشرات مكتوبة توزعها وزارة السياحة ، أو خطبا تعتمد على إحصاءات مكذوبة ، أو أنباء مختلقة . . لا . لا . إن جمال عملها بالإسلام ، وصدق بلاغها عنه هو الذى يصنع لها القبول ويجمع حولها الأنصار.

إن النبى عليه الصلاة والسلام يعرف العرب معرفة جيدة ، ويعرف أغوار الفُرقة والخصام فى أفئدتهم ، ويريد إشعارهم بالنعمة التى أفاءها الله عليهم ، ولذلك يقول لهم فى هذه الحجة (حجة الوداع) : « ويحكم أو ويلكم !! انظروا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » !! .

ما أغلى هذه الوصية ، وما أبعد مداها فى التاريخ لقوم يعقلون . . على أن العلاج النبوى ليس لطيش الغرائز عند جنس بعينه ، إنه لأجناس الخلق كلهم والأمر كما قلنا فى مكان آخر : إن الله رَبَّى محمدًا ليربى به العرب ، وربَّى العرب بمحمد لِيربِّىَ بهم الناس أجمعين ﴿ **وفى هذا ليكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس** ﴾[1].

---

(١) الآية : ٧٨ من سورة الحج .

ومن ثم جاء فى آخر الخطاب النبوى « ألا ليبلغ الشاهد الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه » .

وقد دخل فى دين الله بعد ذلك ألوف وألوف كانوا على اختلاف الألسنة والوجوه أوعى وأقدر ، ولا يزال المدّ متصلاً إلى قيام الساعة .

ونعرض الآن للمبادئ الرئيسية فى هذه الخطبة الجليلة وفق ترتيب اخترناه يناسب عصرنا .

١ - الإنسانية متساوية القيمة فى أى إهاب تبرز ، لا يفرق بينها سواد أو بياض ، لا يفاوت بينها نسب إفريقى أو أوربّى ، فالنزاعات العنصرية ، والنعرات الوطنية ضرب من الدجل والإفك ! .

ومن ذكر الواقع الردىء أن نَصِفَ الحضارة الحديثة بأنها حضارة القوميات والألوان ، وأن شعوب أوربا وأمريكا تضمر فى نفسها احتقارًا لأبناء القارات الأخرى . ومهما غطت هذا الشعور فهو يتنفس بقوة فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولم تُفلح المواثيق النظرية فى كسر شره . .

وقد نبه النبى ﷺ إلى ضلال هذا المسلك فى خطبة الوداع بقوله : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال «اللهم اشهد » .

٢ - ولكسب المال قصة عميقة المجرى فى تاريخ البشر ، وقد راقبتْ الأنظمة المتضادة وهى تحاول توفير الطمأنينة بين الناس ، راقبت نظام التحكير ونظام التسعير ، نظام إطلاق الملكية وتقييدها ، نظام سيطرة الفرد وسيطرة الشعب ، فوجدت أن النفس تدور حول أثرتها ، ولا تبالى فى سبيل غايتها . .

وما لم يكن هناك إيمان بالله فإن قوانين الأرض مسرح للعبث والتظالم ، من أجل ذلك يقول الرسول فى هذه الخطبة « أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه » لكن هذه الإشارة المجملة لا تغنى عن إيضاح أوسع يحسم مادة التظالم بين الناس فى شئون الحياة كلها ، فلنستمع إلى هذا التوجيه المثير .

٣ - أيها الناس أتدرون فى أى شهر أنتم ، وفى أى يوم أنتم ، وفى أى بلد أنتم . قالوا : فى يوم حرام . وشهر حرام . وبلد حرام ! قال : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . . ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال : اللهم اشهد! .

لكن بعض الجبارين ، حكاما كانوا أم محكومين ، تحملهم قوتهم على اجتياح الضعفاء ، ونكبتهم فى حقوقهم المادية والأدبية ، وقد اشتعلت ثورات هائلة للثأر من الظلمة ، ووقعت حمّامات دم . لم يكن القصاص فيها من الظلمة بقدر ما كان من ذراريهم وحواشيهم ، ثم اتسع الخرق فهلكت ألوف مؤلفة من الأبرياء ، وقامت حكومات جديدة ونشأت أنظمة أخرى ، وتكررت المأساة نفسها حتى لكأن التاريخ سلسلة من المظالم مَنْ يفرّ فيها من الجناة أضعاف من تحيط بهم خطاياهم ، وسوف يبقى الأمر كذلك حتى نعى قول الرسول فى هذه الخطبة « إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم » . .

٤ - وكان الربا قديماً رذيلة ساذجة ، أساسها إمهال المعسر بثمن يسير أو فاحش ، ثم أمسى فى المؤسسات العالمية رذيلة معقدة مدروسة تطيح فيها شعوب وجماعات ، الدولة الفقيرة الآن تريد بناء مرفق هى فى حاجة إليه ، فتقترض المال المطلوب من دولة غنية ، ثم تأخذه على شرط شراء مواد البناء من الدولة المقرضة ، وجعل الجهاز العامل من أبناء هذه الدولة ! وبعد أن تحدد سعر الفائدة الربوية كما تشاء ، تحدد أجور الموظفين من بينها ، وأسعار المواد التى تقدمها ، وتصرف القرض مائة ليعود إليها عدة مئات . .

وجمهرة الدول الفقيرة الآن معرضة للإفلاس من جراء هذه السياسة الجشعة ، وهى تترنح تحت وطأة الوفاء بها يبهظ كاهلها أو يقصم ظهرها . .

ووددت لو تبنّت الدول كلها مبدأ تحريم الربا ، وتقرير مصاريف إدارية معقولة للصناديق أو المصارف التى تشتغل بالإقراض هكذا علّم النبى البشرية من خمسة عشر قرنًا عندما قال « . . . ألا وإن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، وإن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظْلَمُون ، قضى الله ألاّ ربا ، وإن أول ربا أبدأ به - أسقطه - ربا عمى العباس بن عبد المطلب » - وكان من كبار التجار المتعاملين بالربا .

وقد رأيت أن تحريم الربا لا يستريح له إلا من خشى ربه ، وقد قال بشناعة الربا كارل ماركس فهل نفذ التحريم من حكم باسمه من الشيوعيين ؟ كان الروس يبيعون السلاح للدول التابعة لهم بأغلى الأسعار ، ثم يتقاضون الثمن المؤجل مضافا إليه ربا فاحش ! .

إن الحضارة المادية التى تقود العالم لا تعرف إلا اليوم الحاضر والربح العاجل ، أما قوله تعالى ﴿ **وإن كان ذو عسرة فَنَظِرة إلى ميسرة ، وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ (١) فحديث خرافة عندهم ! .

٥ - وصيانة الدماء قضية خطيرة وعندما كتب الله القصاص فى القتل والجراحات ، كان يريد زجر المجرمين عن العدوان ، وعندما يعلم امرؤ أنه لاق حتما المصير الذى يوقعه بغيره سيتردد طويلاً فى قتل هذا أو جرح ذاك . . . وإذا غلبه الطيش فاعتدى فإن منظره مقتولاً أو معاقبًا سيوقع الرهبة فى قلوب الآخرين ، وقد قيل : القتل أنفى للقتل ، وقال الله تعالى ﴿ **فى القصاص حياة** ﴾ (٢) .

وأغلب الدول العظمى الآن ألغت القصاص ! واكتفت بعقوبات تافهة لم تُجْدِ فى حماية

---

(١) الآية : ٢٨٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ١٧٩ من سورة البقرة .

المجتمع ، وأصابتنا حُمّى التقليد ، فشاعت بيننا الجرائم ، وانشغل المظلومون بطلب الثأر لمن ينتمى إليهم أو ينتمون له .

وقد حسم الإسلام هذه الفوضى ، بشرائعه العادلة ، ويجب علينا إسدال ستارة سميكة على الانحرافات التى سادت العالم لتبدأ بعدها صفحة جديدة من تطبيق الأحكام السماوية .

ولا كرامة لباطل كما قال رسول الله فى هذه الخطبة الجامعة « ألا وإن كل دم ومال ومأثرة كانت فى الجاهلية ، تحت قدمى هذه ، وإن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب » – قتله الهذليون فى الجاهلية وكان بين ظهرانيهم – وأراد النبى الكريم أن يفتح العرب بالإسلام صفحة جديدة تجبُّ الماضى ، ويبدأ بها عهد جديد .

٦ ـ وتحدث النبى ﷺ عن حقوق النساء ، وهو حديث يحتاج إليه المسلمون المعاصرون ، كما يحتاج إليه بقية الناس فى المشارق والمغارب ، ذلك أن مواريث المسلمين الثقافية مثقلة بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ، كما أن الأوربيين أسفّت بهم شهواتهم إلى مدى ردىء .

كان العرب لا يرون المرأة شيئًا ولا يقيمون لها وزنًا ، بل لعلهم حسبوها شرًا لابدَّ منه ! وقد جأ بعضهم إلى قتلها وهى طفلة حسما للمتاعب والمخازى !! .

ولما جاء الإسلام محا هذا المنطق محوا ، وبيّن أن النساء شقائق الرجال ، وأنهم سواء فى تكاليف العقائد والعبادات والأخلاق ، وأنهم سواء فى استحقاق الثواب والعقاب بما يعانون من جهد فى سبيل الله ، وأن الزعم بأن الذكورة تقدم صاحبها وأن الأنوثة تؤخر صاحبها لون من الكذب .

وبذلك رفض الإسلام ما كان شائعًا بين العرب من ازدراء الأنوثة ، وأقام مجتمعه الجديد على قواعد أخرى ، وإن كانت الطبيعة العربية فيما بعد تمرَّدت على هذه القواعد ، وكما نزعت إلى التشرذم والعصبيات والمنافرات وسفك الدم نزعت إلى حصر وظيفة المرأة فى

شهوتى البطن والفرج ، وضنَّت عليها بالوجود فى ميدان العلم والثقافة والعبادة والإصلاح ودعوة الخير التى هى الصفة الأولى للأمة الإسلامية ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير** ﴾[1] .

ولا ريب أن وظيفة المرأة فى بناء الأسرة خطيرة لا يقبل التفريط فيها ، كما أنه لا ريب فى أن المجتمع كله مطالب بصيانة الأعراض ، ومنع أى عبث بها .

والأمة الراشدة تستطيع التوفيق بين هذه الأهداف جميعا ، فلا تضع المرأة فى قفص الاتهام بغباوة ، ولا تطلقها لتكون مصيدة للآثام ، ولا تجور على غيرة الرجل ، ولا تهمل حقوق الله .

وقد يخطىء الرجل فيؤاخذه المجتمع ، ولا يدع تأديبه ، وقد تخطئ المرأة فلا يتركها الدين وإنما يدع أمر تأديبها إلى زوجها ؛ ليكون جبارا بل ليمنع العوج والنشوز ، ويعيد الاستقرار فى جوانب البيت . .

وفى ذلك قول الرسول ﷺ فى خطبة الوداع « أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ، وإن لكم عليهن حقا ، فعليهن ألا يوطئن فُرُشَكُمْ أحدا ، ولا يدخلن بيوتكم أحدا تكرهونه ، إلا بإذنكم ! فإن فعلن[2] فإن الله أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وأن تضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ! وإنما النساء عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرًا ! .

ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ! قال : « اللهم اشهد » .

---

(١) الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٢) هذا التوجيه النبوىّ يشير إلى ـ العلة التى يقع من أجلها التأديب ، ولا ريب أنه مما يغضب الرجل أن يدخل بيته غريب ، أو كريه ، كما يغضبه أن تترفع المرأة عليه ـ وهو معنى النشوز ـ والتأديب المشروع ليس جلد حيوان ، وإنما هو إشعار بالحق المنكور .

وعقد الزواج ليس عقدَ استرقاق ، ولا عقد ارتقاق لجسد المرأة ، إنه أزكى من ذلك وأرقى ، ولم يقل الشارع : إن المرأة إذا ارتكبت خطأ ارتكب الرجل ضدها خطيئة ، والمحزن أن تقاليد المسلمين بعيدة عن دينهم ، وليست قط صورة تشرف الإسلام .

ولا نعتذر بذلك لدنايا الغرب أو نهوّن منها ! وإنما نريد إنصاف الشريعة ومحو الغبار الذى أخفى معالمها ، وشرع الله أفضل من أهواء الناس فى الشرق أو الغرب .

٧ - وفى حجة الوداع أكد النبى ﷺ حرمة الأشهر الحرام ، وهذا أمر يحتاج إلى بعض البيان ، إن الأمم تحتاج إلى أمكنة وأزمنة يتوفر فيها السلام والهدوء ، وتقلّم فيها أظافر الوحوش الرابضة فى دماء البشر ، أمكنة وأزمنة يأمن فيها الإنسان على حقوقه المادية والأدبية ، ويثق بأنه لن يجد أذى أو كيدًا من عدوّ أو صديق .

وقد ألهم الله إبراهيم ومحمدًا عليهما السلام فجعلا مكة والمدينة حرمين آمنين ، كما أنه سبحانه جعل من السنة أربعة شهور تُجمَّد فيها الخصومات حتما وتتوقف الحروب . . وفى عصرنا حاولت بعض الدول أن تجعل نفسها محايدة بين شتى الجبهات . كما أن هناك محاولات لجعل مناطق من الأرض مجردة من السلاح الذرى ، والمحاولات لكفكفة شرور الناس متصلة ! .

بيد أن الأشرار لا يكفّون عن بسط أيديهم بالشر ما استطاعوا ، وفى الجاهلية العربية حاول نفر من الجبابرة إبطال حرمة الشهر الحرام ، لأنه كان راغبا أن يقاتل فى هذا الشهر فأفتى نفسه بأن يحلّه ، ويحرِّم شهرًا آخر مكانه ، ويمكن الإرجاء والتبديل تبعا للهوى .

ولا ريب أن ذلك أضاع مكانة الأشهر الحرم ، ومكّن الأقوياء من العدوان ، كلما تيسر لهم .

ونحن المسلمين نودّ لو يملأ السلام أرجاء الأرض ، ويستغرق أعمار البشر ، وأنَّى لنا ذلك ؟ فى كل صلاة نهتف من أعماقنا « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » وفى كل صلاة نتلفت يمينا ويسارًا لنوزع السلام حوالينا ! .

ومع ذلك لم نفلت من شباك الفتانين والجبارين فخضنا الحروب كارهين مكرهين ! ولا نزال كذلك حتى يوم الناس هذا ، فماذا نصنع ؟ .

إن نبينا صلوات الله عليه ناشد الناس أن يستعيدوا حرمة الأشهر الأربعة فلا يظلموا أنفسهم فيها ، وعسى أن يكون ذلك ذريعة إلى منع القتال طوال السنة ! ونحن نستأنف هذه المناشدة ! بيد أننا نرفض أن تُستغلّ ضدنا ، فسوف نقاتل يقينا إذا اعتُدى علينا فى أى شهر أو إذا استجمَّ العدّو خلالها وأعدّ عُدَّته للهجوم متربّصا بنا السوء ! .

إننا نعرض على العرب وغير العرب احترام الشهور لتتنفس فيها الإنسانية بهدوء .

قال عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرَّم الله » ــ والنسىء كما أشرنا آنفا ـ إرجاء حرمة الشهر إلى شهر آخر حسب الهوى ، وقد ظلوا يفعلون ذلك حتى رجع الشهر المستباح إلى وضعه الطبيعى فقال النبى الكريم : « ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، ولا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت ؟ فقالوا : نعم قال : اللهم اشهد .

٨ - بديه أن يكون النبى ﷺ حريصًا على مستقبل أمته ، كارها أن يصيبها ما أصاب الأمم الأولى من زيغ وغضب ! والحق يخاف عليه من ناحيتين كلتاهما شر من صاحبتها ! .

الأولى : غارة همجية تدك قواعده وتمحو معالمه ، وهذه تجىء من الخارج والأعداء كثيرون .

والأخرى : فوضى علمية وعملية تجعل الغلوّ يغلب القصْد ، والعوج يغلب الاستقامة ، فإذا وجْهُ الحقيقة دميم ، وباطنها سقيم . . وهذه تجىء من الداخل ، وخلل

الأديان القديمة أتى منها ، والمغالون والمنحرفون قد يكونون شرًا من العاصين والفاجرين .

وقد هوجم الإسلام من الداخل والخارج على سواء ، وحاولت الشياطين أن تطفئ نوره ، ولكن الله كتب له الحفظ وضمن لأصوله الخلود . .

ونحن فى هذا العصر نشكو جراءة العدوّ وطول يده فى نهبنا ، وغلظ طبعه فى إهانتنا ، وعند التأمل العميق نرى المسلمين قد لحقتهم مغارم فادحة ، وسقط لهم قتلى وجرحى كثيرون ، أما المفقودون الذين تاهوا هنا وهناك ففوق الحصر !! .

ومع شناعة الغزو الخارجى ، فإن فوضانا الداخلية كانت أنكى ، وسمعة الإسلام العالمية تحرج الصدور ، حتى كتب بعض أعداء الإسلام عن التفرقة العنصرية فى الإسلام(!) كيف شرعها وقررها ، وحتى عُرف أن الإسلام يرجح جانب الفرد المستبد على رأى الأمة (!) وأن الإسلام صديق الفقر والتخلّف ، وأنه عدوّ المرأة ، وأن المال فى مجتمعه دُولة بين الأغنياء (!) ومناكر كثيرة حاربها الإسلام منذ ظهر اعتبرت من تعاليمه .

والفوضى الداخلية عندنا هى المسئولة عن هذا البلاء ، وأعتقد أنها سبب الاستعمار الذى أذل جانبنا .

ومع سوء الفقه وسوء الحكم خارت قوى المسلمين وذهبت ريحهم ؟! ثم تطلعت الأخلاف بعيدًا فرأت بريق التقدم يتخلل أقطارًا أخرى لها فلسفات متبرجة ودعاوى ضخمة !! .

فظن المظلومون أن العدالة هنالك ، وظنَّ الفقراء والمحرومون أنهم واجدو النعمة والكرامة فى مذاهب القوم ومسالكهم . .

بل ظن أصحاب البلاهة والجهل أن الإسلام كان السبب فيما عرا البلاد من تقهقر ، وخير لهم أن يستبدلوا به المبادئ التى خلبتهم . .

وراجت سوق العلمانية والشيوعية والديمقراطية ، وهى مذاهب سدَّت نقصا ملحوظا

عندما ظهرت ، لأنها ظهـرت فى بيئات كان الخصام فيها شديدًا بين العلـم والدين والعدل الاجتماعى والنظام الطبقى ، وبين حقوق الشعوب والحق الالهى للملوك ! .

إلا أنها مذاهـب قرنـت بكل خير قدمتـه شرًا يساويـه أو يربو عليـه ، فإذا العـالم مملوء بالإلحاد والفسـاد والأثرة ، وانضم إلى ذلك شـىء آخر مثير للعجب ، إن الأديـان الأرضية والسماوية جميعًا لبست هذه المذاهب الجديدة على ضغائنها وخرافاتها القديمة ، واشتبكت مع الإسلام تريد محوه والعيش على أنقاضه ، فعلـت ذلك الوثنية واليهودية والنصرانية دون حيـاء ، والحرب الآن على قدم وسـاق فى الشرق الأقصـى والأوسـط وفى إفريقيـة وجنـوب أوربا . .

وبـابا الفـاتيكان وغيره يقـومـون برحـلات وسيـاحات متتـابعة لـلإجهـاز على الديـن الجريح . .

بـل إن الشيوعيـة - والمفروض أنها ذات صبغـة عالميـة - كشفت عـن أنها حركـة تخدم القومية الروسيـة أو الصينية ، وتؤسس استعمارا من لون جديد وتعـرِّض للفناء ثمانين مليونا من المسلمين ، وتعمل على محو شخصيتهم ، وإفناء عقيدتهم . . .

إننى أحذِّر أمتى الكبرى مـن فناء ذريع يجتاحها مع هـذا الاسترسال فى الغفلة والجهل بما يحاك ضدهـا من مؤامـرات ، وعجزها الشائن عـن رد عدوّ يوشـك أن يأتى عليهـا من القواعد .

ولتعلم أمتنـا ، أن الحل الأول هو الحل الأخير ، وأن التعـاليم التـى صنعتها قـديماً هى التى تصوننـا الآن ، وأن التفريط فى الإسلام محو لكينـونتنا قال عليه الصـلاة والسلام « أيها الناس ، إن الشيطان قد يئـس أن يعبد بأرضكم هذه ، ولكنه قـد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرونه من أعمالكم ، فاحذروه على دينكـم ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلـوا أبدًا ، ، أمرًا بيِّنـا : كتاب الله وسنـة نبيه ، وإنكـم ستُسألون عنـى ! فما انتم قائلون ؟ قالـوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ! فجعل يشير بـإصبعه السبابة إلى

السماء ، ثم إلى الناس وهو يقول : اللهم اشهد اللهم اشهد » .

هذه هى المعانى التى شاء الرسول أن يـؤكدها فى حجته الأخيرة بالناس وهو يقول : أيها الناس ، اسمعـوا منى أبين لكـم ، فإنـى لا أدرى : لعلى لا ألقاكـم بعد عـامى هـذا بهذا الموقف أبدًا . . ! .

والوصـايا التـى أودعها النبى ﷺ ضمائر النـاس لا تتضمن قضـايا فلسفيـة ولا نظرات خيالية ، إنها مبادئ سيقـت فى كلمات سهلة سائغة ، لكنها استوعبـت جملة الحقائق التى يحتاج إليها العالم ليرشد ويسعد .

وهى على وجازتها أهدى وأجدى من مواثيق عالمية طنانة .

ذلك أن قـائلها كان عـامر الفؤاد بحب النـاس والعطف عليهم ، شـديد الحرص على ربطهم بـالله وإعدادهم للقـائه ، عميق الشعور بعـبء البلاغ الذى أخذه على عـاتقه ، موقنا بأن الحياة الصحيحة يستحيل أن تتم بعيدًا عن الله ووحيه . .

وقد نأى المسلمون – فى هذا العصر – عن مواريث نبيهم ، وإذا كان الشيطان على عهد النبوة قـد يئس أن يعبـد فى جزيـرة العرب . . وإذا كـان الإسلام على عهـد النبوة قـد دفن النعرات الجاهلية والعصبيـات الدموية ، فـإن هذا العصر جدد آمال الشيطـان ، بل نفخ فيها روح القوة . . . والعالم الإسـلامى اليوم تتوزّعه نحو مـائة قومية ، وتمشى جماهيره تحت مائة راية . . .

وبعض هذه القوميات يقبل الإسلام ضيفا عليه – ضيفا فحسب – وبعضها الآخر تبلغ به القحّة أن يعدّ نفسه بديلا عن الدين . . .

وقد تفرسنا فى هذه القوميات البديلة عن الـدين كما يزعم أصحابها ، فإذا الدين المزهود فيه هو الإسلام وحـده ! وإذا القوميات المنتحلة مصيدة استعمارية لطعـن الإسلام وحده ، والسماح بالمرور لكل دين آخر . . .

والقوميات الكبيرة تتجـول فى محيط السياسة العالمية كـأنها حيتان فاغرة فاهـا ، تبتلع ما تريـد ، وقد استطاعت أن تصنـع فى إفريقية أكثـر من خمسين قومية صغيرة ، أقيمـت وفق

مواصفات خاصة ، وأشرف على تخطيط حدودها رجال الكنائس المسيحية ، وذلك لتنفيذ خطة الفاتيكان فى القضاء على الإسلام وجعل النصرانية الدين الأول فى هذه القارة . .

والخطة المرسومة تنفَّذ بأناة ودهاء ، ويتعهدها البابا نفسه بزياراته وبركاته (!) . . .

وما صنع فى إفريقية صنع مثله من قبل فى آسيا ، فروسيا أنشأت الاتحاد السوفيتى من أربع عشرة قومية ، خمس منها إسلامية ، قيل لها كى تقف مقاومتها الحربية : إنها لن تضار من الانضمام إلى هذا الاتحاد من الناحية الدينية . .

قال الأستاذ أحمد سليمان المحامى فى مجلة الفكر الإسلامى السودانية : أصدر لينين منشورًا مليئًا بالوعود الحسنة للمسلمين ، وقعه معه ستالين فى ١٥/ ١٢/ ١٩١٧ م - إذ كان مسئولا عن شئون القوميات - جاء فيه : إن أديانكم وعاداتكم ومعاهدكم العلمية والقومية مصونة من كل اعتداء ! نظموا حياتكم القومية تنظيمًا يستند إلى أسس الحرية والاستقلال ، وهذا من حقكم الشرعى (!) واعلموا أننا نحن البلاشفة ندافع عنكم وعن حقوق كل الشعوب التى تعيش فى أنحاء روسيا . . إننا برفع علمنا هذا ، إنما نعلن للشعوب المستعبدة فى روسيا شعار الحرية والاستقلال . . أيها المسلمون ، نحن ننتظر منكم معاونتكم المادية والأدبية » .

ولكن سرعان ما نكص ستالين عن وعده عندما استتب له الأمر . . وهو بهذا النكوص يكرر ما فعلته من قبل القيصرة كاترين الثانية التى وعدت المسلمين بحمايتهم إذا استكانوا للحكم الروسى ، فلما ملكت أمرهم أصدرت فى ٨/ ٤/ ١٧٨٣ م منشورا تعلن فيه دون حياء ، بل تعلن فيه وقد أخذتها العزة بالإثم حنثها بوعدها قائلة : « لذلك أرانى فى حلّ من تعهداتى السابقة بالتخلى عن القرم ، وترك شعوبها حرة مستقلة ، وأجد من حقى أن أعود فيما أعطيت وأن أضع يدى على هذا الإقليم . . » .

الواقع أن المسلمين ضياع فى روسيا على عهد القياصرة البيض والحمر جميعًا ، وأنهم يعاملون باستهانة وجفاء ، وقد شرحنا ذلك فى كتابنا « الإسلام فى وجه الزحف الأحمر » .

إنه ـ كما ينقل موظف من بلد إلى بلد ـ تنقل شعوب بأسرها من قطر إلى قطر ! وتبتر بترا

علاقاتها بماضيها ومجتمعها وأواصرها الروحيـة والتاريخية ، يكفى أن يضمن لها الأكل ، كما يضمنُ للدواب العلف ثم تظل تكدح إلى أن تهلك !! كذلك فُعِل بالمسلمين .

ويقول الأستاذ أحمد سليمان : إن الأساليب التى اتخذتها كاترين هى ، هى التى اتخذها ستالين ، الحكام أغلبهم من القومية السلافية ، والنفى مصير كل من يرتاب فى ولائه ، والإعدام يقضى به حتما على كل من يرفع صوته متبرما من ظلم وقع عليه أو على غيره . .

وكما فرضـت كاتريـن توطين بعض الطـوائف الكارهـة للإسلام فى أرض الإسـلام فعل ستالين ، فقـد نفى عشرات الألوف من المسلمين إلى سيبيريـا واستبدل بهم مهاجريـن من قـوميات أخـرى ، وفى أحـد الأفواج التـى نقلـت إلى الأرض الإسلاميـة بلـغ عدد اليهـود القادمين خمسة وثـلاثين ألفا ، وكان بعض البلاشفـة من السلالات اليهودية يقـولون لأبناء جلدتهم : لقـد انتقمنا لكم مـن المسلمين الذين طرد أسـلافهم جدودكـم عندما كـانوا فى جزيرة العرب !! وها أنتم أولاء تعيشون وسطهم فى أرض الاتحاد السوفيتى العظيم . . . » .

المأساة الكئيبة أن المسلمين يجهلون تاريخهم ، وأن العـرب خاصة يجهلون أو يجحدون ما صنع الإسلام لهم وكيف رفع خسيستهم !!

إننى أذكرهم بوصايا النبىِّ وهو يودِّعهـم ، ويدعهم يواجهون الحياة وحدهم ! إنه يقول لهم : لستم وحدكم ، معكـم كتابى وسنتى ! ميراث لا يعْدِلُه ميراث احـذروا التهاون به ، فمـن فعل ذلـك ﴿ **فكـأنما خـرّ من السـماء فتخطفه الطير أو تهوى بـه الريـح فى مكـان سحيـق** ﴾ [1] .

سـلام على صاحـب الـرسـالة الخاتمة ، مـادامـت الأرض والسماء ، ومـا قامـت بـربها الأشياء .

* * * * *

---

(١) من الآية ٣١ سورة الحج .

الفهـــرس

رقم الايداع ٧٧٣١ ٨٧

الترقيم الدولى ٤ ـ ١٤٤ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

الغلاف للفنان حلمى النونى

الطريق من هنا



ليس العمل المطلوب مضغ كلمات فارغة . أو مجادلات فقهية . أو خصومات تاريخية . إن العمل المطلوب أسمى من ذلك وأجدى .

وليس من الإسلام أن أضع قدما على أخرى ثم أرتقب من جن سليمان أن تضع بين يدى مقاليد الحكم .

أريد من المسلمين أن يبدأوا العمل لفورهم فى الميادين المجهولة الوعرة التى ذكرت نماذج لها فى هذا الكتاب وَلُوا الحكم أم لم يلوه ! !

« فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينّك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون »

صدق الله العظيم



دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

